ماهية التصوف

وسمات أهله

ويليه

كتاب خلقنا

تأليف

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ
ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

دار الصلاح

الموضُوع : تزكية وأخلاق .
العنْوان: ماهية التصوف وسمات أهله وكتاب (خُلُقُنا) .
المؤلف: الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ ابن الشيخ أبي بكر بن سالم .
رقم الطبعة : الأولى .
سنة الإصدار : ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م .
قياس القطع : ١٤.٥ × ٢١ .
عدد الصفحات : (٧٦) .
تنضيد وتنسيق: دار الصلاح للنشر والتوزيع (اليمن - حضرموت) .

دار الصلاح للنشر والتوزيع
DAR AL-SALAH
PUBLICATION & DISTRIBUTION
اليمن - حضرموت
www.daralsalah.com
daralsalah2018@gmail.com
00967 - 733822833

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م

دار الصلاح

مَاهيَّة التَّصَوُّف
وَسِمَات أَهْلِه

ماهية التصوف

وسمات أهله

ويليه

كتاب أخلاقنا

تأليف

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ
ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمدُ الله الذي أكرَم مَنْ شاءَ مِنْ عبادِه بنُور البصِيرةِ ، وجَاد عليهم بصَفاءِ السّريرة، نحمدُه على سائرِ نِعَمِه الوَفيرَة ، ونشكره على آلَائِه المتوَاتِرة الكثيرة ، ونستغفرُه من كلّ خطيئةٍ صغيرة وكبيرة .

ونُصَلّي ونُسَلّمُ على أزْكَى العِبَاد وأطْهَرِهم قلباً وقالبا ، وأَحْسَنِهم خُلُقاً وأَوْفرِهم لُبًّا ، سَيِّدِنا ومَوْلانَا مُحمّدٍ مَنْ أَدَّبَهُ ربُّه فكَانَ أَعْلَى الخَلْقِ أَدَبا ، وبَعثَهُ بتزْكِيَةِ العِبَادِ فنَالَ مَنْ تَزَكّى بهِ مِنَ الله رِفْعَةً وقُرْبا .

صَلّى اللهُ وسَلّمَ وباركَ عليهِ وعلَى آلِهِ قُرَناءِ القُرْآن ، وأصْحَابِهِ أهْلِ طُهْرِ الجَنَان ، ومَنْ تَبِعَهم بإِحْسَانٍ من أهْلِ الإسْلَامِ والإيمان .

وبَعْد:

فقد كانَ التّصَوُّفُ وما زَالَ وسَيَبْقَى مَسْلكاً حميداً ومَنْهَجاً رَشِيْداً ، يُزَكّي النّفُوسَ مِن الشّوَائِبِ ويُهذِّبُها، ويُطَهِّرُهَا مِنَ الأَرْجَاسِ ويُؤَدِّبُهَا ، ويُرَقّيها في مَرَاقِي القُرْبِ مِنَ الحقِّ سُبحانَه وتعَالى ويُؤَهِّلُها ، ولِمَ لَا يكونُ كذَلك؟؛ وهوَ رُكْنُ الإحْسَانِ الذِي به تَسْتَقِيمُ المُعَامَلَةُ والعِبَادَة، وبه تَحصُلُ مُرَاقَبَةُ المَوْلَى سُبحانَهُ وتعالى في الغَيبِ والشّهَادة.

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لا نَفادَ لَهُ ... عِلْـمٌ سَنِيٌّ سَمَاوِيٌّ رُبُـوبِيٌّ
فِيـهِ الفَوائِـدُ لِلْأَلْبَـابِ يَعْرِفُهَـا ... أَهْلُ الجَزَالَةِ وَالصُّنْعُ الخُصُوصِيُّ

ولمّا صارَ التّصوفُ عِلماً له أَئِمَّةٌ عِظَامٌ أَطْوَاد ، ومَنْهلاً عـذْباً يَكْثـرُ حَولَهُ النَّاهِلونَ والوُرَّاد ، ظهرَ المُدَّعُونَ لِلشُّرْبِ مِنْ مَعِينِه ، والزَّاعِمُـونَ الوقُوفَ علَى حَقِيقَتِه وعَيْنِه؛ لِيُحَصِّلُوا أَغْرَاضاً عَاجِلةً وحُظُوظاً زَائِلة.

تَصَـوَّفَ كَـيْ يُقَـالَ لَـهُ أَمِـينٌ ... وَمَـا يَعْنِـي التَّصَـوُّفَ وَالأَمَانَـةْ
وَلَمْ يُـرِدِ الإِلَـهَ بِـهِ وَلَكِـنْ ... أَرَادَ بِـهِ الطَّرِيـقَ إِلَى الخِيَانَـةْ

كَمَا أَنّ كثرةَ المُعَادِينَ لمَنْهَجِ التّصَوُّفِ والمُشَوِّهِينَ لِسُمْعَتِه نَاتِجَةٌ عَـن كَثْرَةِ المُترَسِّمِينَ بحِلْيَتِه البَعِيدِينَ عَن كُنْهِهِ وحَقِيقَتِه، ولأَجْلِ هَـذا وذَاكَ كانَ لابُدَّ في هذا العِلْم الشّريفِ مِن بَيانِ حقيقتِه ومَاهِيَتِه، وسَرْدِ سِمَاتِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِليهِ ويَنْدَرِجُ تحتَ رَايتِه؛ لِيَتّضِحَ بـذَلِكَ للنَّاسِكِ السَّبِيلُ، وتَقُومَ بهِ عَلَى المُدّعِي الحُجَّةُ والدَّلِيل، حَتّى لا يُنْكِر هذا العِلْـمَ جَاحِـد ، ولا يَدَّعِي الانْتِسَابَ إليه مَنْ لم تَظْهَرْ عَلَيهِ العَلَائِمُ والشَّوَاهِد .

وقد قامَ العَلّامَة عمرُ بنُ محمّدِ بنِ سالم بنِ حَفِيظ - حَفِظه اللهُ ونفعَ به المسلمينَ وجزاه عنهم خيراً-بأداءِ هذه المُهِمّة، فذَكَرَ في هذا الكِتَـابِ حَقِيقَةَ التَّصَوُّفِ وسِمَاتِ أَهْلِهِ مَعَ بَيَانِ كُلّ سِمَة، وهو ممّـنْ يُعَـدّ في أَهْلِ هَذَا الطّرِيقِ بشَهَادَةِ أَهْلِ العِرْفانِ والتّحْقِيق، فصَـارَ كِتَابُـه كِتاباً مَاتِعـاً، ولِأَهل هذا الفنّ نافعاً، ولعَظِيمِ الفَوَائِدِ جَامِعاً، هذا رَغْمَ صِغرِ حَجْمِه، نسأَلُ اللهَ كمالَ الانْتِفَاعِ بِقِرَاءَتِه ورَقْمِه.. والحمدُ لله رَبِّ العالمين.

الناشر

التَّعرِيفُ بِالمُؤَلِّفِ

الحبيب[1] ، العلامة ، الدّاعِيَة الإمام ، عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ ابن الشيخ أبي بكر بن سالم ، مؤسس دار المصطفى للدراسات الإسلامية بتريم ، وعضو المجلس الاستشاري الأعلى لمؤسسة طابة بـ : (أبو ظبي).

نَشْأته :

ولد بمدينة تريم بحضرموت في اليمن ، في يوم الاثنين ، في الرابع من شهر محرم ، سنة (١٣٨٣) هـ ، الموافق : السابع والعشرين من شهر مايو ، سنة (١٩٦٣) م ، ونشَأَ بها ، وحَفِظَ القرآن الكريم ، وترَبَّى في أحضَان والده الإمام الشهيد محمد بن سالم بن حفيظ مفتي تريم ، في بيئةٍ صَالحةٍ عِلْميّة وتربية إسلامية إيمانيّة .

نسبه :

هو الحبيب عمر ، بن محمد ، بن سالم ، بن حفيظ ، بن عبد الله ، بن أبي بكر ، بن عيدروس ، بن عمر ، بن عيدروس ، بن عمر ، بن أبي بكر ، بن عيدروس ، بن الحسين ، بن الشيخ أبي بكر ، بن سالم ، بن عبد الله ، بن عبد الرحمن ، بن عبد الله ، بن الشيخ عبد الرحمن السقاف ، بن محمد مولى الدويلة ، بن علي ، بن علوي ، ابن الفقيه المقدم محمد ، بن علي ، بن محمد

(١) لقبُ (الحبيب) : يطلقُ في ناحية حضرموت على المُتخَصِّصِينَ في العِلم الشرعي، وفي مجال الدعوة إلى الإسلام من الذين يرجع نسبهم إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

صاحب مرباط ، ابن علي ، بن علوي ، بن محمد صاحب الصَّوْمعة ، بن علوي ، بن عبيد الله ، ابن الإمام المهاجر إلى الله أحمد ، بن عيسى ، بن محمد النقيب ، بن علي العريضي ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن علي زين العابدين ، بن الحسين السبط ، بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد بن عبد الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام .

شيوخه :

أخذَ علومَ الشّريعة من قُرْآن وحديث وفقه وعقيدة وأصول وعلوم اللغة العربية والسلوك ، على أيدي من أدركهم من علماء حضرموت ، ومن أهمهم والده ، ثم العلماء الآتي ذكرهم ، وهم : العلامة المفتي الحبيب إبراهيم ابن عقيل ، والحبيب محمد بن علوي بن شهاب الدين ، والحبيب محمد بن عبد الله الهدار، والحبيب المنصب أحمد بن علي بن الشيخ أبي بكر، والحبيب عبد الله بن شيخ العيدروس ، والمؤرخ البحاثة الحبيب عبد الله بن حسن بلفقيه ، والمؤرخ اللغوي الحبيب عمر بن علوي الكاف ، وأخيه الحبيب علي المشهور بن محمد بن سالم بن حفيظ ، والحبيب سالم بن عبد الله الشاطري ، والحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف ، والشيخ المفتي فضل بن عبد الرحمن بأفضل ، والشيخ توفيق أمان .

بدأ بالتّدْريس وبالدعوة إلى الله تعالى وهو في سِنّ الخامسة عشر، وذلك مع مواصلَته للتَّعَلُّمِ والأخْذِ والتَّلَقِّي، وحصل على إجازات علمية من عدّة مشايخ منهم: مسند الدنيا الشيخ محمد ياسين الفاداني ، والحبيب إبراهيم ابن عقيل مفتي لواء تعز، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة .

تأسيسه لدار المصطفى :

أسّسَ الحبيب عمر دار المصطفى للدراسات الإسلامية بمدينة تريم في حضرموت ، وابتدأ في ذلك عام (١٤١٤) هـ ، وتخرجت الدفعة الأولى منه عام (١٤١٩) هـ ، وتقوم الدار على ثلاثة مقاصد وأهداف ، وهي:

* تحصيل وتحقيق علوم الشريعة الإسلامية وآلاتها بتلقيها وأخذها بالسند المتصل عن الشيوخ المتصلين بالشيوخ الراسخين في العلم بأسانيدهم المتصلة إلى كبار أئمة الأمة وصولاً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .
* تزكية النفس وتطهير الصفات وتهذيب الأخلاق وتقويم السلوك والتحلي بالآداب النبوية سيراً جَادّاً مستقيماً إلى الله تعالى .
* نشر الدعوة إلى الله ودينه وكتابه وسنة رسوله المصطفى على وجه الرحمة والصدق والسعة والتقريب والجمع والتأليف وحسن الظن والصبر والاحتمال وتطلب المعاذير والثبات والعزيمة وتواصل العمل .

وخلاصة المقاصد : هي تحصيل العلم النافع بأخذه عن أهله والعمل به على الوجه الأمثل والدعوة إلى الله على بصيرة ، ويتصل بها مقصد رابع وهو حفظ القران الكريم وتلقي علومه .

مؤلفاته :

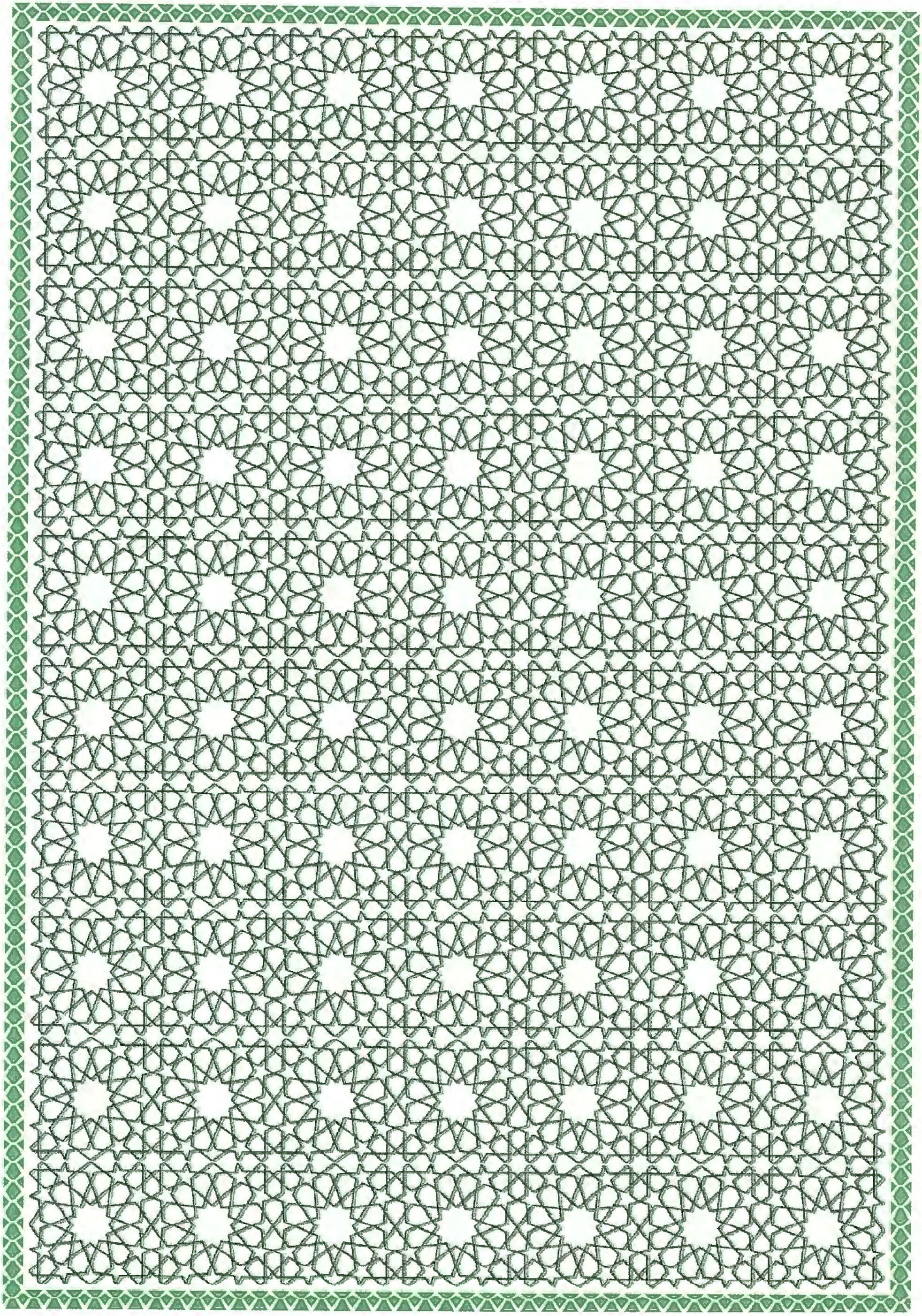
له الكثير من الإصدارات السمعية والمرئية ، والمؤلفات ، ومنها:

* إسعاف طالبي رضا الخلاق ببيان مكارم الأخلاق .
* مملكة القلب والأعضاء .
* توجيهات الطلاب إلى أسس الهدى والصواب .

* شرح منظومة السند العلوي .
* الوسطية في الإسلام .
* قبس النور المبين من إحياء علوم الدين .
* سعادة المعاد والمحيا شرح قصيدة : (إذا شئت أن تحيا) .
* الذخيرة المشرفة (وقد ترجم بعدة لغات) .
* خلاصة المدد النبوي ، في الأذكار .
* الضياء اللامع بذكر مولد النبي الشافع .
* الشراب الطهور في ذكر سيرة بدر البدور .
* التوجيهات النبوية في الخطب الجمعية .
* المختار من شفاء السقيم .
* ثقافة الخطيب .
* نور الإيمان من كلام حبيب الرحمن .
* سلسلة معالم الدعاة في طريق حبيب الله .
* قطوف الفالحين من رياض الصالحين .
* ديوان شعر بعنوان : (فَائِضات المَنّ مِن رحمات وهّاب المِنَن).

كما أنّ له الكثير من البرامج التوعوية والدينية ، وله دروس كثيرة في فنون متعددة ، وله مقابلات في كثير من القنوات الفضائية ، ومشاركة في كثير من المؤتمرات الإسلامية ، وله رحلات كثيرة إلى كثير من أقطار العالم للدعوة إلى الله تعالى، وقد انتفع بتلك الرحلات خلْقٌ كثير.

ماهية التصوف



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمْدُ لله ، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:٣] ، ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة:٢٣٥] .

وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا الله وَحْدَه لا شَرِيكَ لهُ ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧] .

وأشهدُ أنّ سيدَنا ونبيَّنا وقرّةَ أعيُنِنا محمّداً عبدُه ورسُولُه ، أرسَلَه بالهُدَى ودِينِ الحقِّ ليُظْهِرَهُ على الدِّينِ كلِّهِ ولو كَرِهَ المشركونَ .

وخاطبَه بقولِه تَعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٧] .

وبقولِه تَعالَى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:١ - ٤] .

ووصَفَه بقولِه تَعالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

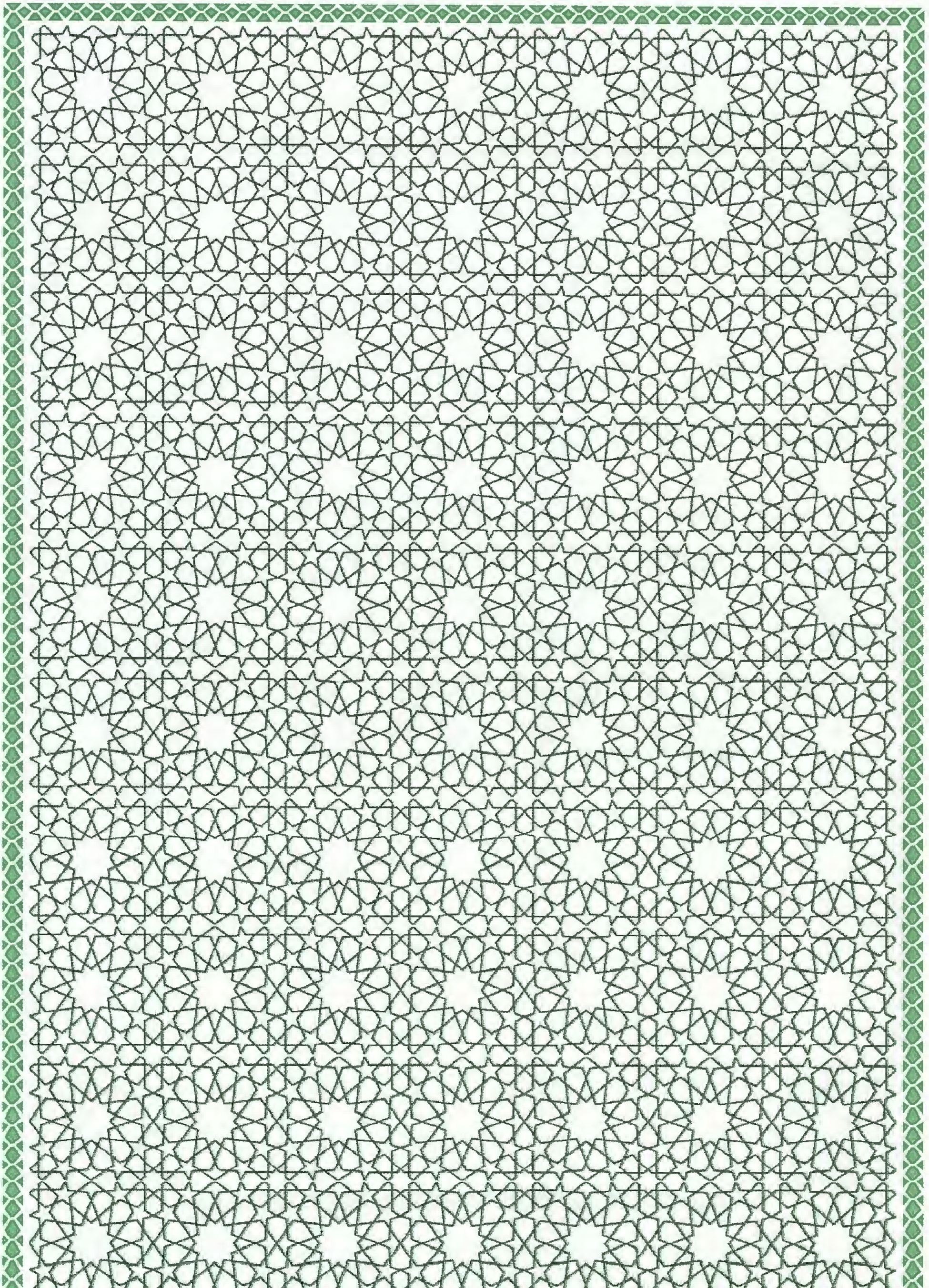
﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] . وبقولِه عزَّ وَجَلَّ : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] .

اللّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّم أفضَلَ الصَّلَاةِ وأزكى التّسْلِيم على عَبدِكَ وحَبيبِكَ سَيّدِنا محمّدٍ الهادِي إلى صِراطِكَ المستقيمِ ، وعلَى آلِهِ وأهْلِ بيتِهِ المُقْتَرِنِينَ بالقُرْآنِ لَنْ يَتفرَّقا حتّى يرِدَا عَليهِ الحَوضَ يومَ القِيامَةِ ، وعلى أصْحَابِه المُهَاجِرينَ والأنصَارِ أهْلِ السَّبقِ والفَضْلِ والكرَامَةِ ، وعلَى تابِعِيهِمْ بإحْسَانٍ ، وعلَى آبائِهِ وإخْوَانِهِ مِنَ النّبيينَ والمرسَلينَ ، وآلِهِمْ وصَحْبِهِم والملائكَةِ المقرَّبينَ ، وجميعِ عبادِ الله الصّالحين .

أمَّا بَعْدُ:

فهذا بيانٌ موجَزٌ كَافٍ شَافٍ عَن حقيقةِ التّصوفِ ، وسِمَاتِ أهلِ طريقِه ، يَنتفعُ به - إنْ شَاءَ الله تَعالَى - المستبينُ والمُسْتَهدِي والمُنصِفُ ، ومَن شَاءَ اللهُ مِن عبادِه ، وسَّعَ اللهُ النفعَ بِه لمُصَنِّفه وقارِئِه وكَاتِبِه وسَامِعِه ، وأمّةِ النبيِّ محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

مُقَدِّمَة



التَّصَوُّفُ

التَّصَوُّفُ :هوَ حُسْنُ العمَلِ والاتِّصَافِ بمُقْتَضَى خِطَابِ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورَسُولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ؛ ذَوْقاً وَتَحَقُّقاً .

فهوَ الارْتِقَاءُ بعِلْمِ اليَقِينِ إلَى عَينِ اليَقِينِ وحَقِّهِ .

وهوَ السَّعيُ والصُّعُودُ بسُلَّمِ الإسلامِ والإيمانِ إلى نَيلِ مَرَاتبِ القُربِ والمعرِفةِ الخاصّةِ باللهِ ، والمحبةِ الخالِصَةِ مِنَ اللهِ ولله .

وهو حُسْنُ الاتّباعِ لسيِّدِنا رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، وحصُولُ ثمرتِه مِنْ محبّةِ الله عَزَّ وَجَلَّ .

الصُّوفِيُّ :

فمَن بلغَ ثمرةَ حُسنِ العملِ والاتّصَافِ بمُقتضَى خِطَابِ الله عَزَّوَجَلَّ ورسولِه المصطفى ذَوْقاً وتَحقُّقاً ، فهوَ الصُّوفيّ .

فلا يُسمَّى صُوفيًّا إلا مَنْ وصلَ إلى رُتْبةِ عَينِ اليَقينِ .

قال رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « الإِحْسَانُ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه النسائي عن أبي هريرة وأبي ذر معاً .

أمّا مَن وَالَاهُمْ وسارَ في طريقِهم مُجتهداً ، ولم يبلغْ بَعْدُ مَرتبةَ عَينِ اليقينِ فهُوَ مُتصوِّفٌ ، ليسَ بصُوفيٍّ .

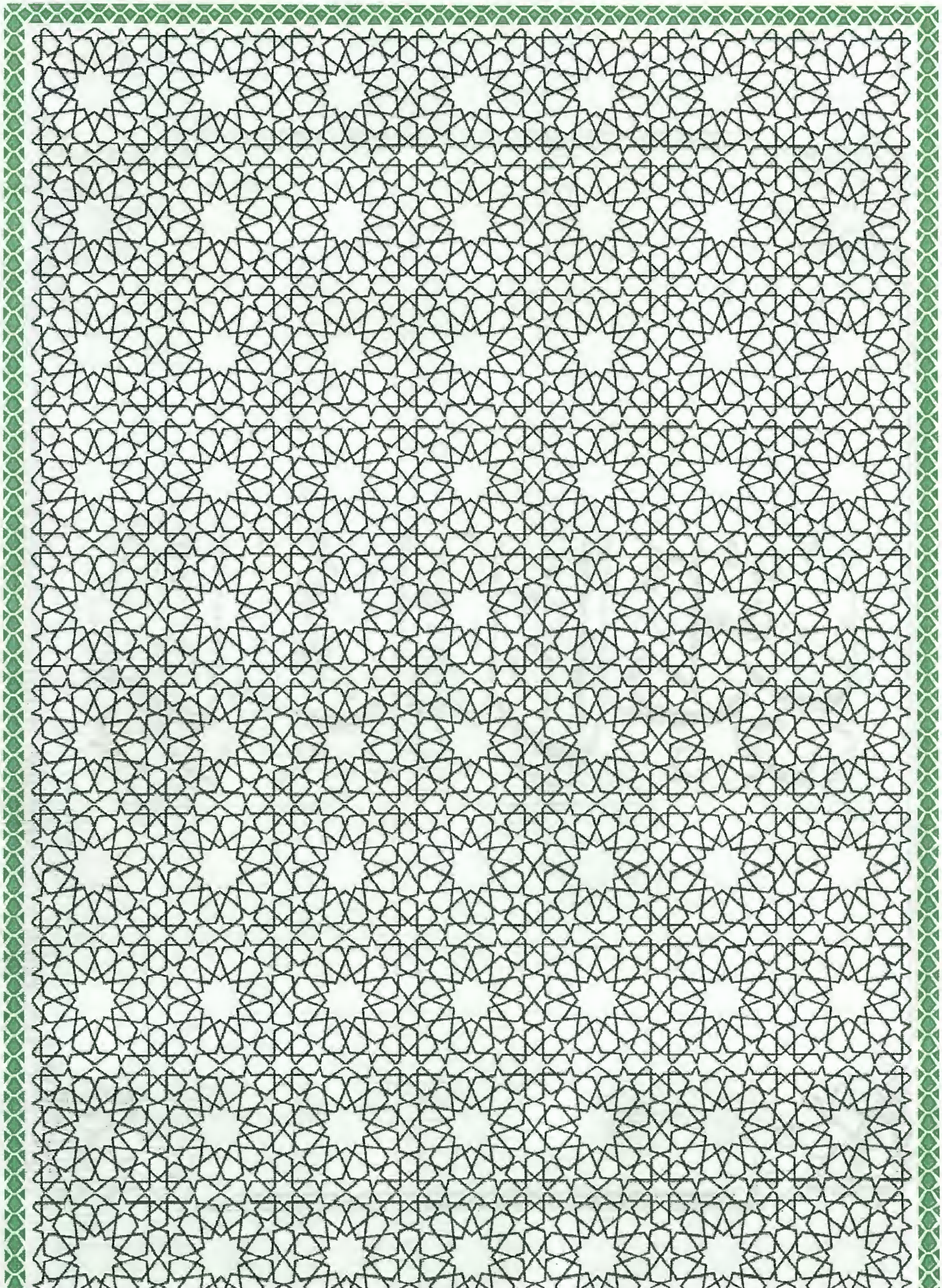
وأمَّا مَن وَالَاهُمْ ولم يكمُل اجْتِهادُه في السَّير بِسَيرِهم فهوَ المتشبِّهُ بهم . قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والحكيم الترمذي، والبيهقي في شعب الإيمان ، والطبراني ، وعبد بن حميد ، وابن أبي شيبة والبزار .

قالَ الإمَامُ عبدُ الله بنُ أبي بكرٍ العَيدروس - في كتابه الكبريت الأحمر - : " الصّوفيُّ : السّالكُ الوَاصِلُ . والمتشبّهُ : المتمَسّكُ بالطّريقِ المُحِبُّ لهُم . ومُتَشَبِّهُ المُتَشَبِّهِ : المؤمِنُ بطَرِيقِهم المُحِبُّ لهُم . ومَنْ أحَبَّ قوماً كانَ منهم، وفي الحديثِ الصَّحِيح: « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[1] . اهـ.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٦١٦٨)، ومسلم في صحيحه برقم:(١٦٥)، ورواه البيهقي في شعب الإيمان [٢/ ٤٧] برقم: (٤٩٦)، ورواه والترمذي في الجامع الصحيح [٤/ ٣٢١] برقم: (٢٣٨٥)، والإمام أحمد [٢٠/ ٧٤] برقم: (١٢٦٢٥)، والطبراني في المعجم الكبير [٨/ ٥٤] برقم: (٧٣٤٨)، عن صفوان بن عَسّال.

سمات أهل الطريق



السِّمَةُ الأُولى

العِلْمُ بالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

وذلكَ أصْلُ التَّصَوُّفِ ، إذْ بدونِه لا يُمكِنُ قطْعاً حُسْنُ العَملِ والاتّصافِ بمُقتضى خِطَابِ الله ورسُولِهِ ، بَلْ لا يُمكنُ مجرّدُ العملِ والاتّصَافِ ، فضْلاً عَنْ أَنْ يتمَّ إِحْسَانُه ، فضْلاً عَنْ أَنْ يَتِمَّ ذوقُهُ ، أو التّحقُّقُ بهِ .

وحَسْبُكَ أنّهُ لا يمكنُ أنْ يوجدَ في وَاقعِ الأمّةِ اليومَ سَندٌ صحيحٌ متصلٌ لِقراءةٍ مِنْ قِراءاتِ القُرآنِ الكريم ، ولا لِتفسيرِ أحَدٍ مِن الصّحَابة والتّابعين ، ولا لِكتَابٍ مِن كُتُبِ التّفْسِيرِ المُعْتبَرَةِ المشْهُورةِ مِنَ القَرْنِ الثّالثِ الهجري فما بعده ، ولا لحديثٍ مِن أحاديثِ رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، أو لِكِتَابٍ مِن كُتُبِ السُّنَنِ المعْتَبرةِ، كمُوطّأ الإمام مالك ، ومُسْند الإمام أحمد ، والصّحيحين ، والسُّنن الأربعة وغيرها ، ولا لكتابٍ مِن كُتِبِ فقه الشريعة المطهرة ، للأئمة المعتبَرين في المذاهب الأربعة .. إلا عن طريق أهل التّصوّف .

وهذا الواقعُ الذي لا يمكنُ إنكارُهُ دلالةٌ واضحةٌ قاطعةٌ أنَّ أهلَ التّصَوّفِ هم حملةُ وحُماةُ علومِ الكِتابِ والسُّنةِ وفقْهِ الشّريعةِ المطَهَّرةِ .

قال الإمامُ عبدُ الكريم القُشَيريّ في رسالتِهِ : " وَقَالَ الجُنَيدُ : مَن لمْ يحفظِ القُرآنَ الكريمَ ولم يَكتُبِ الحديثَ لا يُقتدَى بهِ في هذا الأمرِ ،

لأنّ عِلمَنا هذا مقيَّدٌ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ " .

وروَى في رسَالتِه أيضاً بسندِه عن الجُنيدِ أنّهُ قال : " مَذْهبُنا هَذا مقيَّدٌ بأصُولِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ " . وَقَالَ : " عِلمُنا هذا مُشَيَّد بحَديثِ رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ". اهـ .

وأورَدَ القَوْلَةَ الأوْلى عَنِ الجُنيدِ الإمَامُ ابنُ رَجَبٍ الحنْبليِّ في جُزْئِهِ (بيانُ فضْلِ عِلْمِ السّلفِ على عِلْمِ الخَلَفِ) ، وأبو الفرَجِ ابنُ الجَوْزِيّ في (تَلْبيسِ إِبليس) . قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » ، رواه البخاري ومسلم .

وَقَالَ الإمامُ أبو بكرٍ العدني بنُ عبدِ الله العَيْدَروسِ :

أَرَى طُرُقَ الحقِيقَة	قَلِيلاً سَالِكِيهَا
وَأَضْحَى كُلُّ جَاهِلْ	بِلَا شَيْءٍ يَدَّعِيهَا
بِلَا عِلْمٍ وَعَمَلٍ	مُحَالٌ يرْتَقِيهَا

وَقَالَ الإمامُ عبدُ الرّحمن بنُ محمّدٍ السَّقَّاف : " كلُّ عِلْمٍ بلا عَمَلٍ باطلٌ ، وكُلُّ عِلْمٍ وعَمَلٍ بِلَا نيَّةٍ هَبَاءٌ ، وَكُلُّ عِلْمٍ وعَمَلٍ وَنِيَّةٍ بِلَا مُوَافَقَةِ سُنَّةٍ مَرْدُودٌ ، وَكُلُّ عِلْمٍ وَعَمَلٍ وَنيَّةٍ وَسُنَّةٍ بِلَا وَرَعٍ خُسْرَانٌ ، يُخْشَى عَلَى صَاحِبِهِ عِنْدَ الْمُقاصَّةِ والْمُوَازَنَةِ ذَهَابُهُ " . اهـ .

السِّمَةُ الثَّانِيَة

اهْتِمَامُهُمْ بِالقُلُوبِ وَصِفَاتِهَا وَأَعْمَالِهَا وَتَزْيِينِهَا لِلْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لأَنَّهَا مَحَلُّ نَظَرِهِ، وَذَلِكَ مُقْتَضَى الإِحْسَان.

قال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ، رواه أحمد ، والبخاريّ ، ومسلم ، وابن ماجة عن أبي هريرة ، ورواه النسائي عن أبي هريرة ، وأبي ذر معاً ، ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذيّ ، وَقَالَ: حسَنٌ صحيحٌ ، ورواه النسائي عن عمرَ .

والإِحْسَانُ : هو المُفضي إلى المعرفَةِ الخَاصَّةِ ، قال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ، رواه أحمد ، ومسلم ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والبيهقي ، والديلمي .

قال الإمامُ الغَزاليّ - في كتاب المنقذ من الضّلال - : " وعَلِمتُ أنّ طَرِيقتَهُم - يعني الصُّوفِيّةَ - إنّما تَتِمُّ بِعِلْمٍ وعَمَلٍ ، وكانَ حاصِلُ علومِهم قَطْعَ عَقباتِ النّفسِ ، والتنزُّهِ عَنْ أخلاقِها المذمُومةِ ، وصِفَاتِها الخبيثةِ ، حتّى يتَوصلَ بها إلى تخليةِ القَلبِ عَنْ غيرِ الله تَعالَى ، وتحليتِه بذكرِ الله " .

ثُمَّ قالَ : " فظهرَ لي أَنَّ أَخَصَّ خَواصِّهم ما لا يمكنُ الوصُولُ إليه بالتّعَلُّم ، بل بالذّوقِ والحالِ وتبَدُّل الصِّفاتِ ، وكم مِن الفَرْقِ أَنْ تعلَمَ حَدَّ الصِّحَّةِ وحَدَّ الشِّبَعِ وأسبابَهما وشروطَهُما ، وبينَ أَنْ تكونَ صَحِيحاً وشَبعاناً ، والطبيبُ في حَالةِ المَرَضِ يعرِفُ حَدَّ الصِّحَّةِ وأسبابَها ، وأَدْوِيَتَها ، وهو فاقِدٌ الصِّحَّةَ ، فعَلِمْتُ يقيناً أنّهم أربَابُ الأَحوَالِ لَا أَصْحَابُ الأَقوَالِ " .

ثمّ قالَ : " فماذَا يَقُولُ القَائِلونَ في طريقةٍ طهارَتُها - وهيَ أوَّلُ شروطِها - : تطهيرُ القلبِ بالكُلّيَةِ عمّا سِوَى الله تَعالَى ، ومِفتاحُها الجاري منها مجرَى التّحريم من الصّلاةِ : استغراقُ القلبِ بالكُلّيةِ بذِكْرِ الله ، وآخِرُها الفناءُ بالكُلّيةِ في الله ، وهذا آخرُها بالإضَافةِ إلى مَا يكادُ يدخلُ تحتَ الاختيارِ والكَسْبِ مِنْ أوائِلِهَا ، وهيَ على التّحقيقِ أوّلُ الطريقةِ ، وما قبل ذلك كالدِّهْلِيزِ للسَّالِكِ إليه " . اهـ .

وفي تَقْرِيرِ أَنَّ مَطْمَحَ نظرِهم إلى القُلُوبِ والحقَائِقِ دُونَ المظَاهِرِ والصّورِ ، قالَ الإمامُ أبو بكرٍ العَدنيّ بنُ عبدِ الله العَيْدَرُوس :

تَظُنُّ السَّمَاعَ سَمَاعَ الدُّفُوفْ أَوَ أَنَّ التَّصَوُّفَ لِبَاسُكْ لِصُوفْ
أَو الوَجْدُ هُو التَّصْدِيَةْ فَلَا يَعْتَقِدْ ذَاكَ إِلَّا سَخِيفْ
سَمَاعُ الرِّجَالِ شُهُودٌ وَحَالْ بِحَقِّ اليَقِينِ وَنَفْيِ المُحَالْ
وَشَوْقٌ وَذَوْقٌ لِمَعْنَى الجَمَالْ بِقَلْبٍ نَقِيٍّ وَجِسْمٍ عَفِيفْ

وَقَالَ الإمامُ عبدُ الله بنُ علويٍّ الحدّاد:

مَــــاذَا يَقُـــولُ المُنْكِـــرُون ... فِي مَـــنْ لَــهُ قَلْــبٌ سَــلِيْمْ
عَــلَى جَمِيْــعِ المُسْــلِمِينْ ... وَقَصْـــدُهُ المَــوْلَى الكَــرِيْمْ
وَيَعْتَقِـــــدْ فِي نَفْسِــــهِ ... بِأَنَّـــهُ عَبْـــدٌ ذَمِــيْمْ
لَــــوْلَا عِنَايَــــةُ رَبِّــــهِ ... لَكَـــانَ بَطَّـــالاً ضَــلُولْ
اللهُ حَسْــــبِي وَكَفَــــى ... قُــلْ مَــا تَشَــا يَــا ذَا الفُضُــولْ

السِّمَةُ الثَّالِثَةُ

الإِخْلاصُ

فقدْ عَظُمَتْ عِنَايتُهم بتحْقِيقِ الإِخـلَاصِ لله تَعَالَى ، ودَقَّقُوا في مُحَاسَبَةِ أنفُسِهم على ذلكَ ، وفَرُّوا مِن أدنَى قصْدٍ لغيرِ الله ، وأدْنى إِرَادَةٍ لغَيرِ وجْهِهِ الكَريمِ ؛ في نِيّاتِهم وأفعالِهم وأقوَالِهم وأَخذِهِم وتَرْكِهم .

قالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣] . وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » ، رواه البخاري ، ومسلم ، وعامّةُ أصحابِ السنن .

قال الحارثُ المحاسِبيُّ في رسالةِ المُسْتَرْشِدِين : " واعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أنَّ الصِّدْقَ والإِخلَاصَ أَصْلُ كلّ حالٍ ، فمِنَ الصِّدْقِ يَتَشَعَّبُ الصَّبرُ والقَنَاعَةُ والزُّهْدُ والرِّضَا والأُنْسُ ، وعنِ الإِخْلَاصِ يَتَشَعَّبُ اليَقِينُ والخوفُ والمحَبّةُ والحَيَاءُ والإِجْلَالُ والتَّعْظِيمُ ".

ثمّ قال : " وأمّا شُعَبُ الإخلاصِ: فلا يُسَمّى المُخْلِصُ مخلِصاً حتّى يُفْرِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأَشْبَاهِ والأمثَالِ، والصَّاحِبَةِ والأَوْلَادِ، ثـمَّ إِرَادَتُه اللهَ بِإِقَامَةِ التَّوحِيدِ، وجمْعِ الهمِّ لهُ وبهِ في النَّفْلِ والفَرْضِ". اهـ .

وَقَالَ الإمامُ القُشَيْرِيّ في رسالته : " الإِخْلَاصُ إِفْرَادُ الحقّ سُبْحانَه في الطّاعَةِ بالقَصْدِ ، وهوَ أنْ يُرِيدَ بطَاعتِه التّقرُّبَ إلى الله سُبْحانَه، دُونَ شيءٍ آخرَ ، مِنْ تَصَنُّعٍ لِمَخْلُوقٍ ، أو مَحْمَدةٍ عندَ النّاسِ ، أو محبّةِ مَدْحِ

الخلْقِ أو مَعنىً مِنَ المعَانِي سِوَى التّقرُّبِ بهِ إلَى الله تَعَالَى".

وروى بسندِه عن الفُضَيلِ ، قالَ : " تـرْكُ العَمَـلِ مِـنْ أَجْـلِ النّـاسِ رِيَـاءٌ ، والعَمَـلُ مِـنْ أَجْـلِ النَّـاسِ شِرْكٌ ، والإخْـلاصُ أَنْ يُعافِيَـكَ اللهُ منهما" . اهـ .

ولذلكَ أَحْجَمُـوا وأعرَضُـوا عَـنْ كَثِيرٍ مِـنَ الأعْـمَالِ الظّـاهِرَةِ التـي للنُّفوسِ إليها مَيلٌ ، ولها فيها غَـرَضٌ ومَطْمَعٌ ، وإنْ عَظُمَـتْ في نَظَـرِ العَـوَامِ ، مَـا لمْ تَصِـحَّ وتَصْـفُو فِيهَـا النِّـيَّةُ ، وقـد أَبـى ورَفَـضَ الإمَـارَةَ والولايَةَ على عهْدِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ .

ولـذَلِكَ أَيضـاً حَرصُـوا عـلى إخْفَـاءِ مَـا قَـدَرُوا عَلَيـهِ مِـنْ أَعْمَالِهِـم الصّالحِةِ وصِفَاتِهِم الطّيّبَةِ الحسَنةِ ، وكِتْمانِ أَحْوَالِهِم الفَاضِلَةِ الشَّرِيفَةِ.

السمة الرابعة

الصِّدْق

وهوَ : اجتماعُ جميعِ قوَى الظّاهرِ والبَاطِنِ على الأمْرِ ، وذلكَ يَقْتَضِي الإتْقانَ ، بِبَذْلِ الوُسْعِ وشُهُودِ المِنّةِ للرّحْمنِ بنَفيِ العُجْبِ ، فكَما أنَّ المُخْلِصَ لَا رِياءَ لهُ ؛ فالصَّادِقُ لا عُجبَ لهُ .

قال اللهُ سُبْحانهُ وتَعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وَقَالَ اللهُ تَعالَى : ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[المائدة:١١٩] .

وَقَالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر:٥٤- ٥٥] . وَقَالَ اللهُ تَعالَى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[يونس:٢] .

وَقَالَ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً » ، رواه أحمدُ ، والبخاريّ ، ومسلم ، والتّرمذيّ ، وابنُ حبّان ، عَن ابن مسعود .

قالَ الإمامُ الحارثُ المُحَاسِبيّ في رسالة المُسْتَرْشِدِينَ : " واعْلَمْ أَنَّ العَاقِلَ لما صَحَّ عِلْمُهُ وثَبتَ يَقِينُه عَلِمَ أَنْ لا يُنَجّيهِ مِنْ رَبِّهِ إلّا الصّدْقُ ،

فسَعَى في طلبِهِ وبحثَ عَنْ أخلَاقِ أهلِهِ ، رَغْبةً في أَنْ يَحيَا قبلَ مماتِهِ ليَسْتعِدَّ لدَارِ الخلُودِ بعدَ وفاتِهِ ، فبَاعَ مَالَهُ ونفسَهُ مِنْ رَبِّهِ ، حيثُ سَمِعَه يَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة:١١١] ." اهـ .

قالَ الإمَامُ القُشَيرِيُّ في رسَالتِه : " والصِّدْقُ عِمَادُ الأَمْرِ ، وبهِ تمامُهُ، وفيه نظامُه .. " ، ثُمَّ قالَ : " وأَقَلُّ الصِّدْقِ اسْتِوَاءُ السِّرِّ والعَلَانِيَّةِ " .

ورَوَى بسَندِه عَنْ سَهْلِ بنِ عبدِ الله قالَ : " لَا يَشُمُّ رَائحَةَ الصِّدْقِ عَبْدٌ دَاهَنَ نَفْسَهُ أَو غَيرَه " . اهـ .

ولِصِدْقِهِم قَبِلُوا نَصِيحَةَ مَنْ يَنْصَحُهُم ، مِنْ كَبيرٍ وصَغِيرٍ ، وفرِحُوا بها ، بل اسْتَفَادُوا مِنْ كَلَامِ مَنْ يَبْغَضُهُم ويُعَادِيهم ، وَقَالَ قَائِلُهُم : " أَحَبُّ النَّاسِ إِليَّ مَنْ أَهْدَى إِليَّ عُيُوبِي " .

ولِصِدْقِهِم يفْرَحُ أَحَدُهُم بإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَى غيرِه ، مِنْ كُلِّ مَنْ لَا يَضُرُّهُم في دِينِهِم ، وفرِحُوا بظُهُورِ الخيرِ على يَدِ أَيِّ أَحَدٍ ، وانْصِرَافِ النَّاسِ عنْهُم إليهِ.

السِّمةُ الخَامِسَةُ

التَّوَاضُعُ القَلْبِيُّ

قالَ اللهُ تَعَالَى لِأَكْرَمِ الخَلْقِ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨] .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « أَتَانِي مَلَكٌ جِرْمُهُ يُسَاوِي الكَعْبَةَ ، فَقَالَ : اخْتَرْ أَنْ تَكُونَ نَبِيّاً مَلِكاً ، أَوْ نَبِيّاً عَبْداً ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ جِبْرِيلُ أَنْ تَوَاضَعْ لله ، فَقُلْتُ : بَلْ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْداً نَبِيًّا ، فَشَكَرَ رَبِّي ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ » ، رواه أحمد ، والبَزّارُ برجال الصحيح ، وأبو يعلى عن أبي هريرة ، ورواه ابن عساكر عن عائشة .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا فِي رَأْسِهِ حَكَمَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ ، فَإِذَا تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللهُ ، وَإِنْ ارْتَفَعَ قَمَعَهُ اللهُ ، وَالكِبْرِيَاءُ رِدَاءُ اللهِ ، فَمَنْ نَازَعَ اللهَ قَمَعَهُ » ، رواه الطبراني عن ابن عباس ، قالَ الهيثميُّ : إسنادُه حَسَنٌ .

وَقَالَ عبدُ الله بنُ مَسعُودٍ رضي الله عنه : " لا يَبلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتّى يَحِلَّ بِذَرْوَتِهِ ، وَلَا يَحِلُّ بذَرْوَتِهِ حَتَّى يَكُونَ الفَقْرُ أَحَبَّ إِليهِ مِنَ الغِنَى ، والتَّوَاضُعُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنَ الشَّرَفِ ، وحَتَّى يَكُونَ حَامِدُهُ وذَامُّهُ عِنْدَهُ سَوَاء " . ففَسَّرهَا أصحَابُ عبدِ الله ، قالُوا : " حتّى يكُونَ الفَقْرُ في الحلَالِ أَحبَّ إليهِ مِنَ الغِنَى في الحَرَامِ ، وحتّى يكونَ التَّواضُعُ

في طَاعَةِ الله أَحَبَّ إليهِ مِنَ الشَّرَفِ في مَعْصِيَةِ الله ، وحتَّى يَكُونَ حامِدُهُ وَذَامُّهُ في الحقِّ سَوَاء " . رواه أحمد في الزهد .

وَقَالَتْ عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنهَا : " إِنَّكُمْ تَغْفَلُونَ عَنْ أَفْضَلِ العِبَادَةِ ؛ التَّوَاضُعِ ". رواه أحمدُ في الزهد . ورَوَى فيه أيضاً عن عبد الله بن مسعود : " أَنَّ مِنْ رَأسِ التَّوَاضُعِ أَنْ تَرْضَى بِالدُّونِ مِنَ المجْلِسِ ، وَأَنْ تَبْدَأَ بِالسَّلَامِ مَنْ لَقِيتَ " . وعن الحسَنِ قَالُوا : أَيُّ شَيءٍ التَّوَاضُعُ يَا أَبا سَعِيدٍ؟، قال: "يَخْرُجُ مِنْ بَيتِهِ فَلَا يَلْقَى مُسْلِماً إِلّا ظَنَّ أَنهُ خيرٌ مِنْهُ". اهـ.

قال الإمَامُ الحارِثُ المحاسبيّ - في آدابِ النّفوسِ - : " فمن عالجَ نَفْيَ العِزِّ مِنْ نَفْسِهِ ، وَوَفَّقَهُ اللهُ لِذَلِكَ فنالَ نَفْيَهُ، سَهُلَ عَلَيهِ المَسِيرُ فِي طَرِيقَةِ محبَّةِ الله عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَحَجَّةِ الإِيمَانِ ، وسَبيلِ الاسْتِقَامَةِ، ومَدَارِجِ الصَّالحينَ ، وهَانَ عليهِ مُعَالجةُ الصِّدْقِ في عَمَلِهِ ، واطْمَأَنَّتْ نفْسُهُ إلى التَّذَلُّلِ والتَّوَاضُعِ ، وطابَ له طَرِيقُ العَدْلِ ؛ لأنـهُ لا يَقدِرُ أَنْ يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وفِيهِ العِزُّ ، ولَا يَقْدِرُ عَلَى كَظْمِ الغَيظِ وفيهِ العِزُّ ، ولَا يَقْدِرُ على قَبُولِ الحقِّ وفيهِ العِزُّ ، ولا يَقْدِرُ على أَنْ يَدُومَ على الصِّدقِ وفيهِ العِزُّ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ الحسَدِ وفيهِ العِزُّ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ الحِقْدِ وَفيهِ العِزُّ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِ العَصَبِيّةِ وفيهِ العِزُّ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى سَلَامَةِ القَلْبِ وفيهِ العِزُّ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى النُّصْحِ وفيهِ العِزُّ ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ الإِزْرَاءِ عَلَى النّاسِ وفيه العِزُّ ، فما أَكْثَرَ ضَرَرَهُ وأعظَمَ فسَادَهُ، ومَا أَغْفَلَ النّاسَ عنهُ " .

ثُمّ قالَ : " ولو أَنَّ رجُلاً صَلّى الغدَاةَ ، ثُمّ أقبلَ على نفسِه وأَصْلَحَ خصْلةً مِنْ خِصَالِ العِزِّ لَيسَ العِزُّ كُلُّهُ ، وآخَرُ تَصَدّقَ بوَزْنِ نفسِهِ ذهَباً علَى أَكْبَادٍ جائعَةٍ مِنْ وَجْهٍ طَيِّبٍ ، لكَانَ الأَوّلُ أَغْبطُ ، وكَانتْ النِّعْمَةُ عليهِ أَكْبَرَ ، والشُّكْرُ عليه أَكْثَرَ عند أَهْلِ المعْرفَةِ والعِلْمِ .

فكيفَ إذَا أَصْبحَ وهُوَ لم تكُنْ لهُ همّةٌ إلا العِنَايَةُ بالعِزِّ لنَفْسِهِ لتَجْرُبَتِه لهُ ومَعْرِفَتِه لهُ ، وآخَرُ أَصْبحَ ولمْ تَكُنْ همّتُهُ ولا محبّتُهُ إلّا العِنَايةُ بنَفْيِ العِزِّ مِنْ قَلْبِهِ ، ولُزُومِ التَّوَاضُعِ ، وذُلِّ النَّفْسِ لتَجْرِبَتِهِ لنُورِ التّوَاضُعِ ، ومعْرِفتِهِ بفَوائِدِه ، فهَنيئاً لمنْ شُغْلُهُ مِثْلُ شُغْلِهِ ، مَا أَنْفَعَهُ مِنْ شُغْلٍ ، وأَرْضَاهُ عندَ مَلِيكِهِ ، وَأَرْوَحَهُ للْقَلْبِ .

فاعْتَبِرْ برَجُلينِ أُمِرَا بالعُبُودِيَّةِ ، وأَحُدُهما أَحبَّ أَنْ يَجْعَلَ نفْسَهُ عَبْداً كَما أُمِرَ ، وأَحَبَّ الآخرُ أَنْ يَجْعَلَ نفسَهُ مَلِكاً ، أَيُّ هَذينِ أَوْلَى بالجَائِزَةِ مِنَ المَوْلى ؟ ، وأَيُّهُمَا يَسْتأْهِلُ العُقُوبَةَ الموجِعَةَ !؟ " .

ثُمَّ قالَ : " ولَا أُكثِرُ عليكَ مِنْ صِفَاتِ فرُوعِ دَوَائِهِ - يَعْنِي العِزَّ - فتَمَلَّ وتُعْرِضَ ، ولَكِنْ أَدُلُّكَ علَى الأَصْلِ الذِي إذَا عَالجتَهُ أَتَى علَى الأَغْصَانِ كُلِّها ، وهوَ الإِيَاسُ مِنْ جميعِ المَخْلُوقِينَ ؛ أَنْ يَضُرُّوا أَوْ ينفَعُوا ، أو يُعطُوا أَوْ يَمْنَعُوا ، أَوْ يُحْيُوا أَوْ يُمِيتُوا ، فأَلْزِمْهُ قَلْبَكَ، فَإِنَّهُ أَصْلُ الأُصُولِ، ورَأْسُ الأَمْرِ وسَنَامُه.

فإنْ كنتَ مُريداً صَادِقاً تُحِبُّ النّظرَ في عَواقِبِ الأُمُورِ فَأَغْلِقْ علَى نفْسِكَ بابَ الطّمَعِ ، وافْتَحْ لها بَابَ الإِيَاسِ ، وانفَرِدْ لِذَلِكَ بِإِرَادَتِكَ

كُلِّها ، وتَجَرَّدْ في طَلَبِهِ كَالذِي لَيْسَ لهُ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنيا كُلِّها إلّا حَاجَةٌ واحِدةٌ ، وتَعْزِمُ عزماً صَحِيحاً على أَنْ تهَبَ نفسَكَ لله في بقِيّةِ عُمرِكَ إِنْ كُنتَ تراهُ لِذَلِكَ أَهلاً - سُبْحَانَهُ وَتعَالَى - !، مَا أَغْنَاهُ عَنْ أَهْلِ السّمَاوَاتِ وأَهْلِ الأَرَضِينَ ومَا أَشَدَّ اضْطِرَارَهُم إِليهِ ! ". اهـ .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ مِنَ التَّوَاضُعِ لله الرِّضَا بِالدُّونِ مِنَ المَجْلِسِ » ، قال العِراقِيُّ : أخرجه الخرائِطيّ في مكارم الأخلاق ، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين بسند جيّد .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدَ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ » ، رواه ابن سعد ، وأبو يَعْلَى بسند حسن ، وابن عساكر .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمُ » ، رواه مسلم .

قالَ الإمَامُ الغزالي في الإحيَاءِ : " فما نُقِلَ مِنْ أَحْوَالِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ يجمعُ جُمْلَةَ أَخْلَاقِ المُتَوَاضِعينَ .

فمَنْ طلبَ التَّوَاضُعَ فَلْيَقْتَدِ بهِ ، ومَنْ رَأى نفسَهُ فوقَ محَلِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، ولمْ يَرْضَ لِنَفْسِه بما رَضِيَ هوَ بهِ فما أَشَدَّ جَهْلَهُ ، فلَقَدْ كانَ أَعْظَمَ خَلْقِ الله مَنْصِباً في الدّنيا والدّين ، فلا عِزَّ ولَا رِفْعَةَ إلّا في الاقْتِدَاءِ بهِ " . اهـ .

السِّمَةُ السَّادِسَةُ

مَعْرِفَةُ الفَضْلِ لأَهْلِهِ وَنَبْذُ الحَسَدِ

ومِنْ أَبْرَزِ سِماتِهِم - مع حُسْنِ ظَنِّهم واعْتِقادِ الخيرِ في جميعِ المسلمينَ - : إِنْزَالُ النّاسِ مَنَازِلَهُمْ ، والإِقْرَارُ بالفَضْلِ لِأَهْلِهِ ، والفَرَحُ بتَخْصِيصِ الله مَنْ يَشَاءُ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ ومَزِيَّةٍ وفَضْلٍ .

وبهذِهِ السِّمَةُ حَرَصُوا على إِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنْهُ وكَرَّمَ وجهَهُ قال : سِمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » . رواه ابنُ عساكر .

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنها قَالَتْ : " أَمَرنَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهم " ، رواه الخطيبُ ، والبيهقيُّ في شُعَبِ الإيمان .

وعَنْ جُبَيرِ بنِ الحُوَيرِثِ : " أَنَّ عُمَرَ بنَ الخطّابِ اسْتَشَارَ المسلمينَ في تَدوِينِ الدِّيوَانِ ، فدَعَا عَقِيلَ بنَ أَبي طَالِبٍ ، ومَخْرَمَةَ بنَ نَوفَلٍ ، وجُبَيرَ بنَ مُطْعِمٍ ، وكانُوا مِنْ نُسَّابِ قُرَيشٍ ، فقَالَ : اكتُبُوا النَّاسَ على مَنَازِلِهم ، فبَدَأُوا ببَنِي هَاشِمٍ ، ثُمَّ أَتْبَعُوهُم أَبَابَكْرٍ وقَومَه ، ثُمَّ عُمَرَ وقومَه على الخِلافَةِ ، فلمّا نَظَرَ فيه عُمَرُ قال : وَدِدْتُ والله أَنَّهُ هَكَذا ، ولكِنْ ابْدَأُوا بِقَرَابَةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ،

حتَّى تَضَعُوا عُمَرَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللهُ ". رواه ابنُ سَعْد .

وَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِيَّاكُمْ وَالحَسَدَ ، فَإِنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ » ، رواه أبو داود ، وعَبْدُ بنُ حميد ، والبيهقيّ في شعب الإيمان .

قال الإمَامُ الغزالي في الإحياء : " رُبَّمَا يَحْسَدُ مَنْ يُثْنِي النَّاسُ عَلَيهِ ، ويُحِبُّونَهُ ويُكْرِمُونَهُ ، فيُرِيدُ زَوَالَ تِلْكَ النِّعْمَةِ ، فَلَا يَجِدُ سَبِيلاً إِلَيْهِ إِلَّا بالقَدْحِ فيه ، فيُرِيدُ أَنْ يُسْقِطَ مَاءَ وَجْهِهِ عِنْدَ النَّاسِ حَتّى يَكُفُّوا عَنْ كَرَامَتِهِ والثَّنَاءِ عليهِ ؛ لِأَنَّهُ يَثْقُلُ عَلَيهِ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ النَّاسِ وثناءَهُم عليهِ، وإكْرَامَهُم لهُ ، وهَذَا هُوَ عَينُ الحَسَدِ ، وهُوَ غَيرُ الغَضبِ والحِقْدِ، فإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَدْعِي جِنَايَةً مِنَ المَغْضُوبِ عَلَيهِ ، والحَسَدُ قَدْ يَكُونُ مَعَ الصَّدِيقِ المُحْسِنِ، والرَّفِيقِ المُوَافِقِ " . اهـ .

السمة السابعة

كَثْرَةُ الذِّكْرِ للهِ تَعَالَى

فَإِنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِ الله مِنْ أَرْكَانِ طَرِيقِهِم ؛ بَلْ هوَ المُعَوَّلُ عليهِ بالحضُورِ معَ الله ، بعدَ تَطْهِيرِ البَاطِنِ مِنَ الخبَائِثِ ، وهوَ مَنْشُورُ الولايةِ .

قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة: ١٥٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[الأحزاب:٤١-٤٣] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف: ٢٨].

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ » ، رواه أحمد ، وابن ماجة بإسناد حسن ، والبيهقي ، وابن حبان عن أبي هريرة ، ورواه ابن النجار ، والحاكم ، وَقَالَ : صحيحُ الإسنادِ عن أبي الدَّرْداء.

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « يَقُولُ اللهُ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ » ، رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حبان .

وعَنْ عبدِ الله بنِ بُسْرٍ ، أَنّ رَجُلاً قالَ : يا رَسُولَ الله ؛ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَليَّ ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيءٍ أَتَشَبَّثُ بهِ ، قَالَ : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ الله » ، رواه أحمد ، والترمذي ، وَقَالَ : حسن غريب . وابن أبي شيبة ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم ، وَقَالَ : صحيح الإسناد . والبيهقي ، وابن المبارك ، والطبراني في الأوسط .

وعَن مُعَاذٍ رَضيَ الله عنْهُ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ قال : « مَا عَمِلَ آدمِيٌّ عَمَلاً أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ الله مِنْ ذِكْرِ الله »، قَالُوا: ولَا الجِهَادُ في سَبِيلِ الله؟، قَالَ: « وَلاَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله ، إِلّاَ أَنْ تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ حَتَّى يَنْقَطِعَ ، ثُمَّ تَضْرِبُ بِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ ، ثُمَّ تَضْرِبُ بِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ » ، رواه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والطبراني .

وعن أبي طَلْحَةَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ قال : « أَتَانِي المَلَكُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ أَمَا يُرْضِيكَ أَنَّ رَبَّكَ يَقُولُ أَنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ تَسْلِيمَةً إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ؟، قُلْتُ : بَلَى أَيْ رَبِّ »؟ ، رواه أحمد ، والنسائي ، والدارمي ، وابن حبان ، والحاكم ، وَقَالَ : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي ، وابن أبي شيبة .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً » ، رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة.

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلَاةً فِي الدُّنْيَا»، رواه البيهقي، وابن عساكر. وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُواْ». قَالُوا: وما رياض الجنة؟، قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ»، رواه أحمد، والترمذي وحَسَّنَهُ، وأبو يعلى، والبيهقي، والطبراني.

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ - فضلاً عن كُتَّابِ النَّاسِ -، يُطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُواْ قَوْماً يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَواْ: هَلُمُّواْ إِلَى حَاجَتِكُمْ، فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُم -: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟، فَيَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟، فَيَقُولُونَ: لَا ؛ وَاللهِ مَا رَأَوْكَ، فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟، فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُواْ أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيداً، وَأَكْثَرَ تَسْبِيحاً، فَيَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟، فَيَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟، فَيَقُولُونَ: لَا؛ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟، فَيَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُواْ أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَباً، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟، فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ اللهُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا؛ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟، فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهَا فِرَاراً، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ

غفَرْتُ لهُمْ ، فيَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ : فِيْهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنهُمْ، إِنَّما جَاءَ لِحَاجَةٍ ، فيَقُولُ : هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » ، رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن حبان ، وأبو نعيم ، وأحمد ، والطيالسي، والبيهقي ، والترمذي ، وَقَالَ : حسن صحيح .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ » ، رواه أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والترمذي .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُواْ يَذْكُرُونَ اللهَ، لَا يُرِيْدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ الله إِلّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : قُومُواْ مَغْفُوراً لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَات » رواه أحمد وأبو يعلى.

قال الإمامُ عبدُالله بنُ علوي الحدّاد:

وَإِنْ رُمْتَ أَنْ تَحْظَى بِقَلْبٍ مُنَوَّرٍ ... نَقِيٍّ عَنِ الأَغْيَارِ فَاعْكِفْ عَلَى الذِّكْرِ
وَثَابِرْ عَلَيهِ فِي الظَّلَامِ وَفِي الضِّيَاءْ ... وَفِي كُلِّ حَالٍ بِاللِّسَانِ وَبِالسِّرِّ
فَإِنَّكَ إِنْ لَازَمْتَهُ بِتَوَجُّهٍ ... بَدَا لَكَ نُورٌ لَيْسَ كَالشَّمْسِ وَالبَدْرِ
وَلَكِنَّهُ نُورٌ مِنَ اللهِ وَارِدٌ ... أَتَى ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ النُّورِ فَاسْتَقْرِ

السِّمَةُ الثامِنَةُ

حُسْنُ البَيَانِ وَنَبْذُ الجِدَالِ بِغَيْرِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

فكُلُّ قَادِرٍ منْهُم يُحسِنُ البَيَانَ والتَّوضِيحَ لِلْحَقِّ؛ قَولاً وفِعْلاً وحَالاً، دعْوَةً للحق تَعَالَى، وتَقْرِيباً إليه، وحِرْصاً على عبادِه، وشَفَقَةً عليهم، ورَحْمَةً بِهِم.

قال اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. وَقَالَ تعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدَىً كَانُواْ عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُواْ الجَدَلَ »، رواه أحمد، والترمذي، وَقَالَ: حسَنٌ صحيح. وابن ماجه، والطبراني، والحاكم، وَقَالَ: صحيح الإسناد.

وَقَالَ الأوزاعي: " إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَومٍ شَرًّا أَعْطَاهُم الجَدَلَ ومَنَعَهُم العَمَلَ ".

وَقَالَ الإمامُ الغزالي - في الإحياءِ عن أهل العصر الأول -: " كانَ

يَشْتَدُّ منهُم النكِيرَ على مَنْ كانَ يَفْتَحُ باباً مِنَ الجَدَلِ والمُمارَاةِ ".

ثُمّ قال : " ومِنَ السُّنَّةِ تَرْكُ الجدَلِ في الدَّعْوَةِ إلى السُّنَّةِ، قال الإمام مالك : الجِدَالُ في الدِّينِ لَيْسَ بِشَيْءٍ ". اهـ .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا رَأَيْتُمْ الذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ ، فَاحْذَرُوهُم » ، رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وَقَالَ : حسن صحيح . وابن ماجه .

لَا يَنْطِقُونَ عَنِ الفَحْشَاءِ إِنْ نَطَقُواْ ... وَلَا يُمَارُونَ مَنْ مَارَى بِإِكْثَارِ
مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

السمة التاسعة

مُقابَلَةُ السَّيِّئَةِ بالحسَنَةِ والحِرْصُ على نَفْعِ الخَلْقِ والسَّعْيُ في مَصالِحِهم

قال الله تعالَى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤] .

وَقالَ تعالَى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران :١٣٤] . وقالَ تعالَى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى :٤٠] .

وعن عبدِ الله بنِ سَلامٍ في صِفَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ في التوراة : " لا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا ، وَلَكِنَّهُ يَعْفُو ويَصْفَحُ " ، رواه ابن عساكر .

وَقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا أَوْقَفَ اللهُ العِبَادَ ، نَادَى مُنَادٍ : لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى الله ، فَلْيَدْخُلِ الجَنَّةَ ، قِيلَ : مَنْ ذَا الَّذِي أَجْرُهُ عَلَى الله ؟ ، قَالَ : العَافُونَ عَنِ النَّاسِ ، فَقَامَ كَذَا وَكَذَا أَلْفاً ، فَدَخَلُوا الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، رواه الطبراني ، وحسَّنه المنذري ، ورواه ابن أبي الدنيا ، وأبو نعيم .

وَقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ

كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» .
رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حبان.

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « صَنَائِعُ المَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيْدُ فِي العُمْرِ » ، رواه الطبراني بإسناد حسن .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعاً ، وَلَأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا المَسْجِدِ شَهْراً ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيْهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ » ، رواه ابن أبي الدنيا ، والطبراني بإسناد حسن .

فمِنْ آكَدِ مَا يَحْرِصُ عليهِ أَهْلُ الطَّرِيقِ صَلَاحُ العِبَادِ والبِلَادِ ، ونَفْعُهم بأَنْوَاعِ المَنَافِعِ ؛ الدِّينيَّةِ والدّنيويّةِ ، الظّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ ، العَامّةِ والخاصَّةِ ، والسَّعْيُ في مَصَالِحِهِم ، وخِدْمَتُهم ، بلْ ومُرَاعَاةُ حَقِّ الحيَوانِ والنّبَاتِ والجمادِ .

قال الذهبيّ - في سير أعلام النبلاء - : قال الحاكم بسنده إلى عمرو بن حفْص ، قال : خرجَ ابنُ المبارك من بغداد ، يريدُ المَصِيصَةَ ، فصَحِبَه الصّوفيّةُ ، فقال لهم : أنتُمْ لكُمْ أنْفُسٌ ، تَحْتَشِمُونَ أنْ يُنْفَقَ عليكم ، يَا غلامُ ؛ هَات الطّسْتَ ، فألقَى عليه منْدِيلاً ، ثمّ قال : يُلْقِي كلُّ رَجُلٍ منكم تحتَ المنْدِيلِ مَا مَعَهُ .

فجعلَ الرّجُلُ يُلْقِي عشرَةَ دراهم ، والرّجلُ يلقي عشرينَ ، فأنْفَقَ عليهم إلى المَصِيصَةِ ، ثمّ قال : هذه بلادُ نفير ، فنَقْسِمُ مَا بَقِيَ ، فجعلَ يُعْطي الرّجلَ عشرينَ ديناراً ، فيَقُولُ : يا أبا عبدالرحمن ؛ إنما أعْطَيتُ عِشْرينَ دِرْهماً ، فيَقُولُ : ومَا تُنْكِرُ أنْ يُبارِكَ اللهُ للغَازِي في نَفَقَتِهِ! .

ورَوى أيضاً بسندِه إلى إسماعيلَ بن عَيَّاشٍ قالَ : حدّثني أصْحابي أنّهم صَحِبُوهُ - يعني ابنَ المُبارَكِ - مِنْ مِصرَ إلى مَكّةَ ، فكَانَ يُطْعِمُهُم الخَبِيصَ ، وهوَ الدّهرَ صَائِمٌ.

ونُقِلَ عنه أنه قال للفُضيلِ بنِ عِيَاضٍ : " لَوْلاكَ وَأَصْحَابُكَ مَا اتَّجَرْتُ ". وكانَ يُنْفِقُ على الفُقَرَاءِ كُلّ سَنَةٍ مِائَةَ ألْفِ دِرْهَم .

ورُوِيَ أيضاً عَن عَليِّ بنِ الحَسَنِ بنِ شَقِيقٍ ، قالَ : كانَ ابنُ المُبَارَكِ إذَا كانَ وقْتُ الحَجِّ ، اجتمَعَ إليهِ إخْوَانُهُ مِنْ أَهْلِ مَرْوٍ ، فيَقُولُونَ : نَصْحَبُك ، فيَقُولُ : هَاتوا نَفَقَاتِكُم ، فيأخُذُ نفقَاتِهم ، فيجْعَلُها في صندوقٍ ، ويقْفِلُ عليها ، ثمّ يَكْتَري لهم ، ويخرجهم مِن مَرْوٍ إلى بغْدَادَ، فلا يزالُ يُنفِقُ عليهم ، ويُطْعِمُهُم أطْيَبَ الطّعَامِ ، وأطيبَ الحلْوَى .

ثُمّ يخرجُهم مِنْ بَغْدَادَ بِأحسَنِ زيٍّ ، حتّى يصِلوا إلى مَدِينةِ الرّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، فيقُولُ لكُلّ واحِدٍ : ما أَمَرَكَ عِيالُك أنْ تَشْتَرِيَ لهُم مِنْ طُرَفِ المدِينةِ ؟ ، فيَقُولُ : كذا وكذا ، فيشْتَرِيَ لهُم ، ثم يخرجُهم إلى مَكّةَ ، فإذا قضوا حَجَّهُم ، قال لكُلِّ واحدٍ منهم : ما أمرَكَ عِيَالُكَ أَنْ تَشْتَرِيَ لهُمْ مِن متَاعِ مَكّة ؟ ، فيَقُولُ : كذا وكذا ، فَيَشْتَرِيَ لهم ، ثُمّ يُخرِجُهم مِن مَكّةَ .

فلا يَزَالُ يُنْفِقُ عَلَيهِم إلى أَنْ يصِيرُوا إلى مَرْوٍ ، فيُجَصِّصُ بيُوتَهم وأَبْوَابَهم ، فإذَا كانَ بعدَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ ، عملَ لهم وَلِيمَةً وكَسَاهُم ، فإذا أكَلُوا وسُرُّوا ، دعَا بالصّنْدُوقِ ، ففَتَحَهُ ودفع إلى كُلّ رَجُلٍ منهم صُرَّتَهُ، عليها اسْمُه .

ونقل الذّهَبِيّ في سِيَرِ أعْلام النّبَلَاءِ عن شَيْبَةَ بنِ نَعَامَةَ قال : " لَمّا مَاتَ عَلِيُّ بنُ الحُسَينِ وجَدُوهُ يَعُولُ مائةَ أَهْلِ بَيْتٍ " . وقدْ أَخْرَجَ ذلك ابنُ عساكرَ ، وابن سعد ، وأبو نعيم .

ونقل في سير أعلام النبلاء عن عَلِيِّ الرِّضا ، عَن أبيه موسى الكَاظِم ، عَن جَدِّهِ جعفرَ الصّادِق ، قال : قال عَلِيُّ بنُ الحُسَين : إنّي لأَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ أَنْ أَرَى الأَخَ مِنْ إِخْوَانِي ، فَأَسْأَلُ اللهَ لهُ الجنَّةَ ، وأَبْخَلُ علَيهِ بِالدُّنْيَا ، فَإِذَا كانَ غَدًا قِيلَ لي : لو كَانَت الجنَّةُ بِيَدِكَ لَكُنْتَ بِهَا أَبْخَلَ وَأَبْخَلَ "! . وقد أخرَجَ ذلك ابنُ عساكر.

وذكرَ الذهبيُّ عن ابنِ عُيينَةَ ، عن أبي حمزة الثّمالي ، أنَّ عَلِيَّ بنَ

الحُسَينِ كانَ يحمِلُ الخُبزَ بالليلِ على ظَهْرِه ، يتْبَعُ بها المساكينَ في الظُّلْمَةِ، ويَقُولُ : " إنّ الصَّدَقةَ في سَوَادِ اللّيلِ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ " . كما رواه ابن عساكر ، وأبو نعيم .

وذكرَ الذّهبيُّ عَن عمرو بنِ ثَابتٍ، قال : لمّا ماتَ عليُّ بنُ الحسين وجَدوا بظَهْرِه أثراً ممّا كانَ ينقلُ الجِرَبَ باللّيلِ إلَى مَنَازِلِ الأرامِل .

وعن ابنِ اسحاق قال : كان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون ، لا يدرون مِن أينَ كانَ معاشُهم ، فلمّا مَاتَ عليُّ بنُ الحسين ، فقدُوا ذلك الّذِي كانوا يُؤْتونَ باللّيل .

السِّمَةُ العَاشِرَةُ

المَحَبَّةُ وَإِيْثَارُ الحَقِّ تَعَالَى عَلَى مَا سِوَاه

قال الله تَعَالَى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] . وَقَالَ الله تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] .

وعن عُتْبَةَ قال : بَايَعْتُ رَسُولَ الله سبعَ بيعاتٍ ، خمساً على الطّاعَةِ، واثْنَتينِ على المحَبّةِ . رواه البغوي ، وابن عساكر من طريق أبي نعيم .

وَقَالَ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن ماجة ، والدارمي ، وابن حبان .

وفي رواية لأحمد : « حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ » .

وفي رواية للبخاري والنسائي : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ » .

وعن عبدالله بن هشام قال : كنّا معَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ وهو آخذٌ بيدِ عمرَ بنِ الخطّابِ ، فقال له عمرُ : يا رسولَ الله ؛ لأنت أحبُّ إليَّ مِن كلّ شيءٍ إلّا من نفسي، فقال له النبيُّ: « لَا ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » ، فقال له عمرُ : فإنّه الآن ؛ والله لأنت أحَبُّ إليَّ مِن نفسي ، فقال له النبيُّ : «الآنَ يَا عُمَرُ » . رواه البخاري .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيْمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » ، رواه الطيالسي ، وأحمد، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان، والبغوي ، والطبراني .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ ، وَأَعْطَى للهِ ، وَمَنَعَ للهِ.. فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيْمَانَ » ، رواه أبو داود بإسناد صحيح .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي » ، رواه الحاكم

وصححه، ووافقه الذهبي.

قال الإمامُ القُشَيريّ في رسالته: " ومَن قويَ حبُّه تَسَرْمَدَ شُرْبُه، ومَن صَارَ الشّرابُ له غذاءً لم يَصْبِرْ عنْهُ". وأَنْشَدُوا:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ رَبِّي فَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكُرُ مَنْ نَسِيْتُ
شَرِبْتُ الحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلَا رَوِيتُ

ويُقَالُ: كتبَ يحيى بنُ مَعَاذٍ إلى أَبِي يَزِيدَ البسْطَامِي: " مَن شَرِبَ كَأْساً مِنَ المحبَّةِ لمْ يَظْمَأ بَعْدَهُ، فكَتَبَ إِليهِ أَبو يَزِيدُ: عَجِبْتُ مِن ضَعْفِ حَالِكَ، هَاهُنَا مَنْ يَحْتَسِي بِحَارَ الكَونِ وهُوَ فَاغِرٌ فَاهُ، يَسْتَزِيدُ".

ثمّ قال: " وأمّا محبّةُ العبْدِ لله تَعَالَى: فحَالةٌ يجِدُها مِنْ قَلْبِه، تَلْطُفُ عَنِ العِبَارَةِ، تَحْمِلُهُ عَلَى التَّعْظِيمِ لهُ، وإِيثَارِ رِضَاهُ، وقِلَّةِ الصَّبْرِ عنْهُ، والاهْتِيَاجِ إِليهِ، وعَدَمِ القَرَارِ مِنْ دُونِهِ، ووجُودِ الاسْتِئْنَاسِ بدَوَامِ ذِكْرِه له بقَلْبِه".

ثُمّ قال: " وقِيلَ: أوحى اللهُ تَعَالَى إلى دَاودَ عليه السّلامُ: يا داودُ، إني حرَّمتُ على القُلوبِ أَنْ يَدْخُلَها حُبِّي، وحُبُّ غيري فيها". ثم قال: " وعلى قَدْرِ المحَبَّةِ يكُونُ الشَّوقُ". اهـ.

وَقَالَ الإِمَامُ الغزالي في الإِحْيَاء: " لا يخلُو القَلبُ عَن حَلاوَةِ المحَبَّةِ، إِمَّا محَبَّةُ الدّنيا وإِمّا محبّةُ الله، وهما في القَلبِ كالماءِ والهوَاءِ في القَدَحِ، فالماءُ إذا دَخَلَ خرجَ الهوَاءُ، ولَا يجْتَمِعَانِ".

وَقَالَ: "فَإِنَّ المَحْبةَ لله هيَ الغَايَةُ القُصْوَى مِن المقامَاتِ والذّرْوَةُ العليا من الدّرَجات ، فما بعدَ إدراك المحبة مقامٌ إلا وهوَ ثمرَةٌ مِن ثِمارِها وتابعٌ مِن تَوَابعِها، كالشّوقِ والأُنْسِ والرِّضَا وأَخَواتها ولا قبل المحبّة مقام إلا وهو مُقدّمة مِن مقدماتها كالتّوبةِ والصّبرِ والزُّهْدِ وغيره " .

وَقَالَ : " أوّلُ ما ينبغي أَنْ يتَحقّقَ أنه لا يُتَصَوَّرُ محبَّةٌ إلّا بعدَ مَعْرِفَةٍ وإِدْرَاكٍ .. ، فكلّ ما في إدْرَاكِه لَذَّةٌ ورَاحَةٌ فهوَ محبُوبٌ عِنْدَ المُدْرِكِ ..، فالحبُّ عبارَةٌ عَن مَيْلِ الطّبْعِ إلَى الشّيءِ المُلذّ ، فَإِنْ تَأَكّدَ ذلِكَ الميْلُ وقَوِيَ سُمِّي عِشْقًا " .

وَقَالَ : "وسمّى النبيُّ الصَّلاَةَ قُرَّةَ عينٍ ، وجَعلَهَا أَبْلَغَ المحْبُوبات ، ومعلومٌ أنه ليسَ تحظى بها الحوَاسُ الخَمْسُ ، بل حِسٌّ سَادِسٌ مَظَنَّتهُ القَلْبَ .. ، فتكُونُ لَا محَالَةَ لَذَّةُ القَلبِ بما يُدْرِكهُ مِنَ الأمُورِ الشَّرِيفَةِ أتمُّ وأَبلَغُ " .

ثُمّ قَالَ : " مَن أَحَبَّ غَيرَ الله - لَا مِنْ حِيثُ نِسْبَتِهِ إلى الله - فذلِك مِن جَهْلِه وقُصُورِه في مَعْرِفَةِ الله تَعَالَى ، وحُبُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ محمُودٌ ؛ لأنهُ عَينُ حُبِّ الله تعَالَى ، وكَذَلِكَ حُبُّ العُلَماءِ والأَتقِياءِ ، لِأنَّ محبُوبَ المَحْبُوبِ محبُوبٌ ، ورَسُولَ المحْبُوبِ محبُوبٌ ، ومُحبَّ المَحْبُوبِ محبُوبٌ ، وكُلُّ ذَلكَ يرْجِعُ إلى حُبِّ الأَصْلِ ، فلا يتجَاوزه إلى غيرِه ، فلا محبُوبَ في الحقيقَةِ عِنْدَ ذَوِي البَصَائِرِ إلّا الله تَعَالَى ، ولا مُسْتَحِقَّ للمَحَبّةِ سِوَاهُ .

إلى أَنْ قـالَ : " وَلـذَّةُ مُطَالعَــةِ جمَـالِ الرّبُوبيّـةِ هـيَ التـي عَـبَّرَ عنهـا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، حيثُ قالَ - حَاكِياً عَـنْ رَبِّـهِ تَعَـالَى - : « أَعْـدَدْتُ لِعِبَـادِي الصَّـالِحِينَ مَـا لَا عَـيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » . رواه البخاري " . اهـ .

قالَ الإمَامُ الحدّاد:

مَحَبَّـتُهُمْ دِيْنِـي وَفَـرْضِي وَسُـنَّتِي وَعُرْوَتِيَ الوُثْقَى وَأَفْضَلُ مَا عِنْدِي
وَتِذْكَارُهُمْ رُوحِي وَرَوْحِي وَرَاحَتِي وَلَسْـتُ بِـشَيءٍ إِنْ بَلَـونِيَ بِالصَّـدِّ

ولِصِـدْقِهم في محبَّـةِ الله تَعَـالَى كَـانُوا مِـنْ أَزْهَـدِ النّـاسِ في كُـلِّ مَـا لا يقرِّبُهم إليهِ ، ولا يُعِينُهم على طَاعَتِه ، وكانوا أَسْرَعَ وأَشْجَعَ المجاهـدين في سبيل الله ، جِهَادَ الحقّ الخالص ؛ لِتكُون كلمةُ الله هيَ العُلْيا.

ومَعلومٌ أَنَّ كُلَّ مَا يَتَنَاقَضُ مَعَ مَاهِيَةِ التّصَوّفِ ، أو سِمَةٍ مِنْ سِمَاتِ أَهْلِ طَرِيقهِ فَلَيْسَ مِنَ التّصَوُّفِ في شيءٍ .

وبالله التّوْفِيقُ ، وصَلّى اللهُ علَى سَيّدنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِه وسَلّمَ .

والحَمْدُ لله رَبِّ العالمين .

محتويات الكتاب

بين يدي الكتاب ٥
التعريف بالمؤلف ٧
مقدمة ١١
ماهية التصوف ١٥
سمات أهل الطريق ١٩
السمة الأولى: العلم بالكتاب والسُّنة ٢١
السمة الثانية: اهتمامهم بالقلوب وتصفيتها ٢٣
السمة الثالثة: الإخلاص ٢٦
السمة الرابعة: الصدق ٢٨
السمة الخامسة: التواضع القلبي ٣٠
السمة السادسة: معرفة الفضل لأهله ٣٤
السمة السابعة: كثرة الذكر لله تعالى ٣٦
السمة الثامنة: حُسْن البيان ونَبْذ الجدال ٤٠
السمة التاسعة: مقابلة السيئة بالحسنة ٤٢
السمة العاشرة: المحبة، وإيثار الله على ما سواه ٤٧

كتاب خلقنا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ
لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ
كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾
[الإسراء:١٩]

لَا تَحْسَبَنَّ العِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ
مَالَمْ يُتَوَّجْ رَبُّهُ بِخَلَاقِ
فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيْقَةً مَحْمُودَةً
فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ(1)

(١) البيتان للشاعر المصري محمد حافظ إبراهيم فهمي، ولد في ذهبية بالنيل سنة (١٢٨٧)هـ، نشأ يتيما، ونظم الشعر في أثناء الدراسة، ولما شَبّ أتلف شعر الحداثة جميعاً، لقُبَ بشَاعر النّيل، وطار صيته واشتهر شعره ونثره، وانقطع للنظم والتأليف زمناً، وله ديوان شعر، وعُيِّنَ رئيسا للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، وكان قوي الحافظة بديع الالقاء، توفي بالقاهرة سنة(١٣٥١)هـ، [الأعلام، (٦/ ٧٦)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الكريم المنّان ، قديمِ الإحسَان ، وأشـهدُ أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك لـه ، شـهادةَ عبدٍ أذْعَنَ بالرّبوبيـة لـه صِدْقا ، وافْتَخَرَ بالعبُوديةِ له حَقّا ، وأشهدُ أنّ سيّدَنا ونبيَّنا وعظيمَنـا محمّدًا رسُـولُ الله، صاحبُ الخُلُق العظيم ، والنّهجِ القَوِيم ، والصِّرَاط المُسْتَقِيم .

دَعَانَــا إِلَى حَــقٍّ بِحَــقٍّ مُنَــزَّلٍ عَلَيْـهِ مِـنَ الـرَّحْمَنِ أَفْضَـلَ دَعْـوَةِ
أَجَبْنَــا قَبِلْنَــا مُــذْعِنِينَ لِأَمْــرِهِ سَمِعْنَا أَطَعْنَا عَنْ هُدَىً وَبَصِيْرَةِ
فَيَـا رَبِّ ثَبِّتْنَـا عَـلَى الحَـقِّ وَالهُـدَى وَيَا رَبِّ اَقْبِضْنَا عَـلَى خَـيْرِ مِلَّـةِ[1]

وصَلِّ اللّهُمَّ وسَلِّم أفضَلَ صَلاةٍ وأزْكَى سَلامٍ عـلى حَبيبِـكَ سيّدِنا محمَّدٍ، وعَلى آلِهِ وأصحَابهِ ومَن تبعَهم بإحسَان .

(١) الأبيات لقُطْبِ الدعوة والإرشاد الإمام عبدالله بن علوي بن محمد الحداد باعلوي، محيي السنة، ومقدم أهل التوحيد، وكبير مشايخ الإسلام، ولد بإحدى ضواحي مدينة تريم سنة (١٠٤٤)هـ، حفظ القرآن واشتغل بطلب العلم من صباه، وصحب أكابر العلماء وأخذ عنهم، كُفَّ بصرُه وهو في الرابعة من العمر فأبدله الله سبحانه نوراً في البصيرة ، عاشَ مُلازماً لِلْجِدِ والاجتهاد جامعاً بين العلم والعمل، وتخرّج على يديه الكثير من الأئمة، وله مؤلفاتٌ عديدةٌ نافعةٌ، وتُرْجِمَ الكثيرُ منها إلى عدّةِ لغاتٍ، توفي في تريم سنة (١١٣٢)هـ، [سلك الدرر (٣/ ٩١)].

أمَّا بَعْدُ:

فأقدّمُ هذه الصّفحَاتِ مُشْتملةً على عَظيمِ أخْلاقٍ وجَليلِ صِفَاتٍ، هيَ أخلَاقُ وصَفاتُ المؤمنِ المتحقِّقِ بحقائقِ الإيمانِ، إذِ الإيمانُ مَا وَقَرَ في القلْبِ وصَدَّقهُ العمَلُ، وهو تخلّي عَن الرَّذَائِل وتحلِّي بالفضَائل.

وحيثُ كانَ كريمُ الأخْلاقِ في سُمُوِّ المنزلةِ وعَظَمَةِ الشّأنِ أنْ تكونَ بعثةُ خَاتمِ رسُلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنّما جَاءَتْ لِإتمامِها وإكْمالِها، وإرسَاءِ دعَائِمِها، ويَقولُ في حَقِّها نبيُّ الله عليه وآلِه أفضَلُ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[1]، كان من واجبِ المؤمنِ أنْ يهتمّ بها اهتماماً إذْ لَا يتحَقّقُ له الإتّباعُ لنبيِّهِ والانطوَاءُ تحتَ رايةِ مَبدَئِهِ حتّى يتِمَّ اتّصَافُه وتحقُّقُه بما بُعِثُ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لإتمامِهِ، وإنّها لأسَاسُ رُقيِّنا وعِمادُ نهْضَتِنا.

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ   فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاقُهُمْ ذَهَبُواْ[2]

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد حديث رقم: (٢٧٣)، وأحمد مسند [١٤/ ٥١٢] برقم: (٨٩٥٢)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى [٢/ ٤٧٢]، برقم: (٢١٣٠١)، وفي شعب الإيمان [٦/ ٢٣٠] برقم: (٧٩٧٨)، والبزار في مسنده برقم: (٨٩٤٩)، والشهاب القضاعي في مسنده برقم: (١١٦٥)، ورواه الحاكم في المستدرك برقم: (٤٢٢١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) البيت لأحمد شوقي بن علي، أشهر شعراء العصر الأخير، جرى شعره على كل لسان، ويُلقّب بأمير الشّعرَاء، ولد سنة (١٢٨٥)هـ، وتوفي سنة (١٣٥١) هـ.

جمعتُ هذِه الأَخلَاقَ الكَرِيمةَ والشَّمائلَ العَظيمةَ ؛ سَاردًا لها لتكونَ تذكرةً بما يجبُ أنْ نُطَالِبَ به أنفسَنا ونجتمعَ عليه ونتعاهدَ على العمل به.

وكلُّ خُلُقٍ من هذه الأخلاقِ له شَرحٌ يطولُ، وورَدَ في الحثِّ عليه آياتٌ وأحاديثُ كَريمةٌ، إنما قصَدْنا هاهُنا كما قلنا التّذكرةُ وعسَى ولعَلّ أنْ تحينَ فرصةٌ في المستقبلِ للكَلام عَلى كلّ واحدٍ منها.

والمسلمونَ الآنَ أحْوَجُ ما يكونُونَ بعدَ تثبيتِ عقَائدِهم إلى التمسُّكِ بهذِه الأخْلاقِ الكَريمَةِ، والقِيَمِ والمُثُلِ العُليا الّتي هِيَ مِن أسْبابِ تثْبيتِ العَقيدةِ أيضاً، سَواءٌ منهم العَالمُ في عِلْمِه، أو الصّانعُ في صِناعتِه، أو الحاكمُ في حُكْمِه، والتاجرُ في تجارته، والعاملُ في مِهْنتِه، وكلّ واحدٍ منهم مَعَ رَبّه وإخوانِه ونفسِه.

وكثيراً ما أُصِبْنا بفَقْدِ هذَا الخُلقِ الكَريم بالتّفرُّق والتَّعادِي، وطالما عانَينا مِن جَرَّاء البُعدِ عنه أهوالاً كثيرةً.

وأنتَ لا ترى الآن في الكَثْرةِ الكَاثِرَةِ منّا إلّا: اسْتِهَانةً بالحقُوقِ، وتَعَصُّبٍ في الآرَاءِ، وترفُّعٍ في النُّفُوسِ، وفسَادٍ في المعَامَلَةِ، ولا حَولَ ولا قَوّةَ إلا بالله العَليّ العَظِيم.

ونحنُ نعْلمُ عِلْمَ اليقينِ أنّه بغيرِ اجتماعِنا وتعاونِنا وتكاتُفِنا لَنْ تقومَ لنَا قائمةٌ، ولَنْ يتَحقّقَ لنَا في أيّ مَيدانٍ انتِصَارٌ.

مَا أَحْرَانَا بالتَّمَسُّكِ بهذِهِ القِيَمِ وبثِّهَا بينَ أبنَائِنَا، نحنُ الذِينَ تَداعَتْ

علينَا الأمَمُ كمَا تَداعى الأكَلَةُ على قصْعَتِهَا[1]، وأَحَاطَتْ بنَا تربُّصَاتُ الأعداءِ، ووَاجَهَتْنا مُخطَّطاتُهم الرَّهِيبةُ، المصْنُوعَةُ بكُلِّ دهَاءٍ وكَيْدٍ وخُبْثٍ.

حتّى لقد صنعَ الأعداءُ منّا:

مَنْ يَقُولُ: (إِنِّي مُسْلِمٌ)، ثُمَّ هُوَ يحاربُ الإسلامَ بفعلِه وسُلوكِه، ويَشُنُّ حربًا شَعْوَاءَ على كلِّ ما فيه صالحُ الإسْلامِ وعِزُّ المسلمينَ.

ومَنْ يَقُولُ: (إِنِّي مُسْلِمٌ)، ثُمَّ هُوَ يرضَى عَن حُكْمٍ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ، أو يُؤَيِّدُهُ ويَصِفُه بالتَّقَدُّمِيّةِ والتّطَوّرِ.

ومَنْ يَقُولُ: (إِنِّي مُسْلِمٌ) وَهُوَ مُلْقٍ لأوَامِرِ الله ونوَاهِيهِ ورَاءَ ظهْرِه.

ومَنْ يَقُولُ: (إِنِّي مُسْلِمٌ)، ثُمَّ لا اهْتِمامَ لهُ أبدًا بشِئُونِ الإِسْلَامِ، وأَحْوَالِ المُسلمينَ.

ومَنْ يَقُولُ: (إِنِّي مُسْلِمٌ)، وهُوَ لا يعرفُ عن الإسلامِ إلا رَكعَاتٍ

---

(١) في هذا إشارة إلى ما رواه الإمامُ أحمدُ ابنُ حنبل في مسنده [٣٧/ ٨٢]، برقم: (٢٢٣٩٧)، عَن سيّدِنا ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وآلِه وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآله وسَلَّمَ: «يُوشِكُ أَنْ تَداعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا»، فقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟، قَالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ اللهُ المَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الوَهْنَ»، فقُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟، قَالَ: «حُبُّ الحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ». والحديث سنده حسَنٌ، ويحكي عن واقعنا الأليم، والحال الذي وصلت إليه الأمة.

تُصَلَّى بغَيرِ وَعْيٍ، وصَومٍ إِنْ تيسَّرَ، وزكَاةٍ وحَجٍّ إِنْ سَمَحَت النَّفسُ، أمّا غيرُ هذا فلا دخلَ للإسلامِ فيه.

وصَنعوا منّا مَنْ يرَى أَنَّ التّمسُّكَ بسُلُوكِ دينهِ في بعضِ المَواطنِ عَارٌ يجبُ أنْ يَتَخَلَّى عنه، وتخلُّفٌ لا يَلِيقُ أنْ يظهرَ به أمامَ الأَسْيَادِ المُتقدّمين.

أمّا الإسْلامُ بمعنَاه الصّحِيح: الدّينُ الكامل، والمبدأ العظيم، والمنهجُ الشّامل الذي أتى من رَبِّ السَّماءِ؛ ليَحْكُمَ تَصَرُّفَاتِ البَشَرِ، وحركتَهُم في سَائرِ شئُونِ حياتِهم، فلا يَعْرِفُه ثُمَّ يتحقّقُ بهِ إلّا البعضُ أو القَليلُ.

أَمَّا الكثيرُ ممَّنْ عُدَّ علينا في (الألفِ مَليونِ) مُسْلِمًا[1] فَهُمْ أهلُ انْحِلالٍ، صَنعَتْهُم أيدِي الأعْداءِ ليسَ لهم هَمٌّ ولَا شغلٌ إلّا بزَخَارفِ الدّنيا وإشْبَاعِ الشّهوَاتِ، وليسَ لهُمْ الْتِفَاتٌ ولَا ميلٌ إلّا إلى ذلكَ، جُلُّهم أو كُلّهُم يَقضِي ليلَهُ في السَّهَرَاتِ الخَلِيعَةِ، ونَهارَه انطلاقًا معَ المُنكَرَاتِ الفَظِيعَة، فَأَيُّ إسْلَامٍ هوَ هَذَا !؟.

يا أُمَّةَ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أَمَا آنَ لنَا أَنْ نَستيقظَ مِنْ رَقْدَتِنا؟، أَمَا آنَ لنَا أَنْ نَنْتَبِهَ مِنْ غفْلَتِنا؟!.

إِنَّ عَلينَا أنْ نُدْرِكَ معْنى انْتِمائِنا إلى دِينِ الله، وانطِوَائِنا تحتَ رَايةِ:

---

(١) لعلّ هذا العدد كان بحسب التّعداد الذي بلغه المسلمون في العام الذي كتب في المؤلفُ حفظه الله تعالى هذه الرسالة، وقد كتبها في سنة (١٤٠٣) هـ.

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)، فوَاللهِ إنّها ليسَتْ كلمةً تُقَالُ باللِّسَانِ، ولكِنّها بيعةٌ معَ اللهِ عُظْمَى، وعهْدٌ مع الله له شَأنٌ، ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [الأحزاب:١٥].

إنها تعني الاسْتِكَانَةَ والخضُوعَ لله جلَّ وعَلَا، لقدْ ظلَّ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُجاهِدُ في سَبيلِها أعوَامًا كثيرَةً، يأبَى عليهِ قومُه أنْ يقولوها، وظَلّوا لأجْلِها يُنَاصِبُونَه العِدَاء[1].

لو كانَتْ كَلِمةً تُقَالُ لقَالوهَا وانتهتْ المسْألةُ، ولكِنَّ القومَ أدركوا مَدَى معَانيها، وحقيقةَ بُعْدِ مرْمَاهَا، فثَقُلَ عليهم قولُها والاعترَافُ بها، إنها تعني الدُّخُولَ في مَبدأٍ هو الاسْتِسْلَامُ والانقيادُ للواحِدِ الأَحَدِ فيما أمَرَ وفيما زَجَرَ.

نعم أيّها المسلمون: عُوْا مَا تقولونَ فإنَّ في لا إلهَ إلا الله يكْمُنُ سِرُّ قوَّتِنا، ورُوحُ عظمَتِنا، إنّها التّحَرّرُ الكامِلُ مِن كلِّ اسْتِكَانةٍ وخضُوعٍ لغيرِ الخَالِقِ سُبحَانَه.

ولذَا فإنَّها حِصْنُ الله وسَاحةُ أمانهِ، كما وردَ في الحديثِ القُدسيِّ:

---

(١) أخرجَ ابنُ حبان في صحيحه [١٤/ ٥١٧]، برقم: (٦٥٦٢)، عن أبي طارق رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْه قال: رأيتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّمَ بسُوقِ ذِي المجاز يعْرِضُ نفْسَه على القَبَائِل، ويقول: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، تُفْلِحُوا »، وَرَجُلٌ يُتْبِعُهُ بِالْحِجَارَةِ ، قَدْ أَدْمَى كَعْبَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ. فقُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُتْبِعُهُ يَرْمِيهِ بالحجارة؟، فقَالُوا: هَذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ.

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حِصْنِي ، فَمَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَدْ دَخَلَ حِصْنِي ، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي »(١).

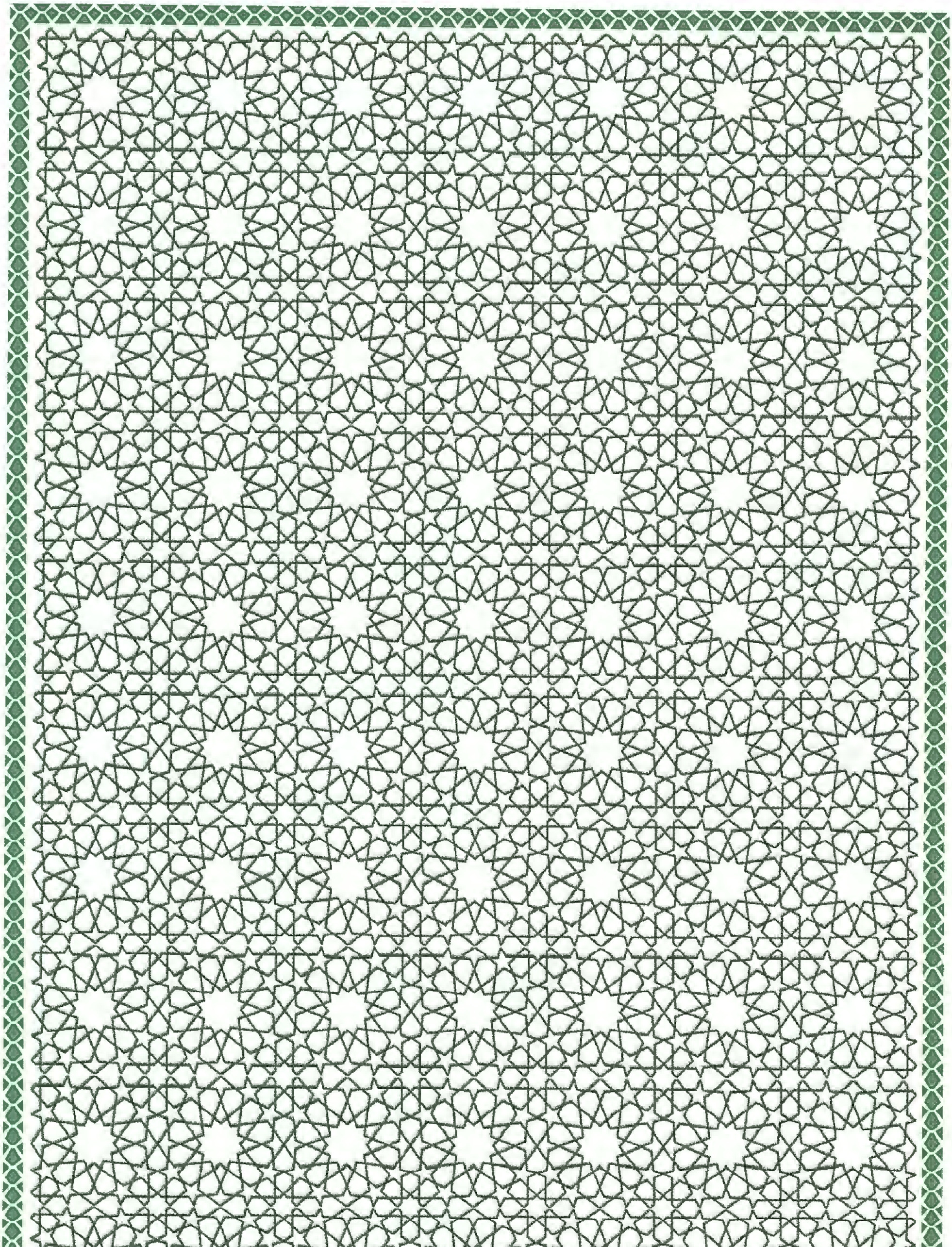
فيا أهلَ لا إله إلا الله، ماذا عَمِلْنا بِلَا إلهَ إلا الله؟، مالنَا إذَا دُعِينا إلى نَصْرِ دينِ الله، والذَّبِّ عَنْ شَرِيعَتِه، وإِعْلَاءِ رَايةِ لَا إلهَ إلا الله اثَّاقَلْنا، أَرَضِينَا بِالحَيَاةِ الدّنيا مِنَ الآخِرَةِ؟، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وأَرَاني قد انْجَرَّ بي القَلمُ، وطالَ الكَلامُ، فإلى ما يَسّرَ اللهُ جمعَه مِن عَظيمِ الأَخْلاقِ ممّا يجبُ أَنْ نتَحلّى بهِ معَ رَبّنا، ومَعَ عِبادِه ومعَ أَنفُسِنا، وباللهِ التّوفيقُ، ومِنهُ نسْتَمِدُّ الهِدَايةَ والعَوْنَ.

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ
ابن الشيخ أبي بكر بن سالم
٢٢ - ربيع الأول - سنة ١٤٠٣هـ

---

(١) أخرجه الحافظ أبو نعيم في الحِلْيَة [٣/ ١٩١]، والشّهابُ القضاعي في مسنده [٢/ ٣٢٣]، برقم: (١٤٥١)، والحافظ ابنُ عساكر في معجمه [١/ ٤١٢]، برقم: (٨٤٥)، وذكره الحافظ السيوطي في الجامع الصغير [١/ ٣٤٠]، برقم: (٣٦٩٤).



خُلُقُنا مَعَ الله

* نُراقبُ اللهَ في سَائِرِ الأحْوَالِ كَأنّنا لهُ نَشْهَدُ .

* ونُخْلِصُ له فيما ظهَرَ وبطَنَ ، ونَتَّخِذُ لنا وِرْدًا يومِيًّا من كِتَابهِ العَزِيز معَ المُحَافَظَةِ على التفهُّم والتَّدَبُّرِ .

* نَحرص على حضُورِ قلوبِنا في الصَّلاةِ لَه ، ولا نُصَلّي إلا جمَاعةً مَا لم تَتعَذَّرُ .

* نَسْتَصْغِرُ لعَظَمَتِه .

* ونقومُ له في جَوْفِ اللّيلِ وظُلْمَتِه ، نستغفرُه ونسْعَدُ بمُنَاجَاتِه، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٦-١٨] .

* أوّلُ مَا نتَّجِهُ إليه عندَ كلّ صَدْمَةٍ .

* نَتَّكِلُ عليهِ وَحدَهُ في جميع الأمورِ .

* نُكْثِرُ من ذِكْرِه وشُكْرِه ، ونثقُ بوعْدِه ونَصْرِه .

* نُكْثِرُ التَّضَرُّعَ والابْتِهَالَ إليهِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ .

* نُعظِّمُ شَعَائِرَهُ وحُرُمَاتِه ، لا تَأْخُذُنا فيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ .

* نَرْعَى حُدُودَه ، ونَسْتَحْيِي مِنْه حَقَّ الحيَاءِ ، « مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَلْيَذْكُرِ المَوْتَ وَالْبَلاءَ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ »(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [١/ ٣٨٧]، برقم: (٣٦٧١)، والترمذي في سننه [٤/ ٦٣٧]، برقم: [٢٤٥٨) وقال: غريب. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير [١٠/ ١٥٢] ، رقم: (١٠٢٩٠)، وأخرجه في المعجم الصغير [١/ ٢٩٨]، برقم: (٤٩٤)، وأخرجه الحاكم في المستدرك [٤/ ٣٥٩]، برقم: (٧٩١٥)، وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان [٦/ ١٤١]، برقم: (٧٧٣٠) ، وابن أبي شيبة [٧/ ٧٧]، رقم: (٣٤٣٢٠) ، والبزار في مسنده [٥/ ٣٩١]، برقم: (٢٠٢٥)، وأبو يعلى في مسنده [٨/ ٤٦١] ، برقم: (٥٠٤٧)، من حديث ابن مسعود.

خُلُقُنَا مَعَ عباده

* نُحِبُّ لِكُلِّ عَبْدٍ آمَنَ باللهِ مَا نُحِبُّ لِأَنْفُسِنَا .
* نُشْفِقُ عَلَيهِمْ وَنَرْحَمُهُم .
* نُوَقِّرُ الكَبِيرَ .
* نَرْأَفُ بِالصَّغِيرِ .
* نَقْبَلُ الإِحْسَانَ وَنُجَازِي عليهِ .
* وَنَتَجَاوَزُ عَنِ الإِسَاءَةِ ونَصْفَحُ .
* لَا نَغْضَبُ لِأَنْفُسِنَا ؛ بَلْ نَجْعَلُ غَضَبَنا لله ورِضَانَا لَهُ .
* وَلَا تَتَشَوَّفُ أَنْفُسُنَا إِلَى إِحْسَانِ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ .
* وَلَا يَمْنَعُنَا اعْتِدَاؤُهُم عَلَينا مِنَ الإِخْلَاصِ فِي النُّصْحِ لَهُم وَإِسْدَاءِ الإِحْسَانِ إِلَيهِم .
* نَتَّقِيهِمْ وَنَحْذَرُ مِنْهُمْ ، وَلَا نُسِيءُ بِهِمْ الظَّنَّ .
* نُحِبُّ فِي الله ، وَنَبْغَضُ فِي الله .

* نَتَسَامَى عَنِ المصَالِحِ وَالمَطَامِعِ الشَّخْصِيَّةِ ، مُرَادُنَا الخَالِدُ دُونَ مَا يَنْتَهِي ، لَا نَرْضَى دُونَ الجَنَّةِ بِثَمَنٍ .

* نَدْعُو العِبَادَ إِلَى اللهِ بالصِّدْقِ والإِخْلَاصِ ، والرِّفْقِ واللِّينِ ، والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ ، والقَوْلِ والعَمَلِ ، نَبْذُلُ فِي ذلكَ غايةَ الجُهْدِ .

* وَلَا نَدَعُ فُرْصَةً لِدَعْوتِهِم إلى مَوْلاهُم إلّا اغْتَنَمْنَاهَا ، لا نُرِيدُ مِنْهُم جَزَاءً وَلا شُكُوراً ، إِنْ أَجْرَنَا إِلّا علَى الذِي فطَرَنا ، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

* نتَصَدّقُ كلَّ يومٍ بمَا تَيَسَّرَ وإِنْ قَلَّ.

* نَتَنَاقَشُ ونَتَباحَثُ ونَتْرُكُ مُجَادَلَةَ مَنْ لَا يَكُونُ قَصْدُهُ الاهْتِدَاءَ إِلَى سَبِيلِ الحَقِّ بَلْ تَسَلَّطَ عَلَيهِ هَوَاهُ فَلَا يُرِيدُ إِلّا أَنْ يَنْتَصِرَ لِرَأْيِهِ مَهْمَا كَانَ .

والنّاسُ أمامنا واحِدٌ من أربعةٍ:

١- شَخْصٌ آمَنَ موقنًا ، وَصَدَّقَ مُطْمَئِنًّا ، وَهَبَّ يَعْمَلُ جَادًّا فِي طَرِيقِ إِيمَانِهِ وتَحْقِيقِ مَبْدَئِهِ، بَاذِلاً غَايَةَ الجُهْدِ وَأَقْصَى المُسْتَطَاعِ، فَهُوَ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُ ، نُعَاضِدُهُ ونَضَعُ أَيْدِينا في يَدِهِ ، سَائِرِينَ عَلَى مَنهجِ الرَّعِيلِ الأَوَّل ، (وَلَنْ يَصْلُحَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوَّلُها)[١] .

(١) هذه العبارة للإمام مالك بن أنس، نقلها عنه القاضي عياض في كتابه الشفا.

٢- شَخْصٌ عَرَفَ الحقَّ وَآمَنَ بِهِ ؛ إِلّا أَنّهُ إِيمانُ نَائِمٍ فَاتِرٍ ، يَثْقُلُ عَلَيهِ العَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ ، ويَشُقُّ عَلَيهِ البَذْلُ فِي سَبِيلِهِ ، فَهَذَا نَدْعُوهُ إلى العَمَلِ والجِدِّ في سَبِيلِ مَبْدَأِ الحَقِّ الذِي آمَنَ بِهِ وارْتَضَاهُ . مُبَيِّنِينَ لهُ أَنَّهُ : (لَيْسَ الإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلاَ بِالتَّحَلِّي ، وَلكِنْ هُوَ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ) (١)، فَإِنْ أَفَاقَ مِنْ غَفْلَتِه ، واسْتَيْقَظَ مِنْ سُبَاتِهِ فذَاكَ مَا نُرِيْدُه له، وإلّا فهوَ أَخُونَا علَى كلِّ حَالٍ نَسْأَلُ اللهَ لنَا ولهُ الهِدَايةَ .

٣- شَخْصٌ مُتَشَكِّكٌ لَا يَهْتَدِي سَبِيلاً ، أو مُكَذِّبٌ ، غَيرَ أَنَّهُ ليسَ بمُحَارِبٍ ، ولَا مُعَوِّقٍ طَرِيقَ الدَّعْوةِ ، فهَذا بيننا وبينه الدَّعْوَةُ إلى الله بالحِكْمَةِ ، والمُجادَلَةِ بالّتي هيَ أَحْسَنُ ، نَسِيرُ بنُورِ الحَقِّ وراءَ انْحِرافَاتِ أفكَارِهِ ، وتَقَلُّبِهَا فِي الظَّلَامِ ، عَسَى اللهُ أَنْ يُنَوِّرَ عَقْلَهُ ، ويُشْرِقُ فِي قَلْبِهِ ضِيَاءُ الهُدَى .

٤- شَخْصٌ لمْ يَكْتَفِ بالكُفْرِ والتَّكْذِيبِ بلْ ظَلَّ مُعَادِياً يُحَاوِلُ إِسْقَاطَ رَايَةِ الهُدَى والحَقِّ ، ويَتَحَيَّنُ الفُرَصَ لِلنَّيلِ مِنَ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، فهَذَا لَيْسَ بيننا وبينهُ إلّا حَدَّ السِّنَانِ، حتَّى يَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله، أو يَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مفْعُولاً، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مُصَنّفه [٦/ ١٦٣]، برقم: (٣٠٣٥١)، والبيهقي في شُعَبِ الإيمان [١/ ١٥٨]، برقم: (٦٥)، موقوفا عن الحسن البصري، ورواه الديلمي في مُسند الفردوس [٣/ ٤٠٤]، برقم: (٥٢٣٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

* وَلاؤُنا لِمَنْ وَالَى اللهَ ، وَعِدَاؤُنَا لِمَنْ عَادَاهُ ، ولِكُلّ مَنْ مَدَّ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ يَدَ العَونِ أَوْ سَانَدَهُمْ .

* نُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَقْوَالِنَا وأفعَالِنا وَأموَالِنا وأنفُسِنَا ، وذاكَ هو طريقُنا وشِعَارُنا .

* نَهتَمّ بتَرْبيَةِ أبنائِنا ، وبناتِنا ، وَأزْوَاجِنا ، وأهْلِينَا ، على وِفْقِ مَنْهَجِ التّربية القُرْآنيةِ والنّبوِيَّةِ .

* نَغْرِسُ في قُلوبِهِم محبّةَ اللهِ ورَسُولِه ، وتَعْظِيمَهما ومَا عَظَّمَهُ اللهُ، وتَصْغِيرِ مَا صَغَّرَ اللهُ .

* نكُونُ لهُم قُدْوَةً صَالِحَةً ، إذِ التّعلِيمُ والدّلالةُ بالأقوَالِ أُمُورٌ نَظَرِيّةٌ تُدرَكُ بالبصَائرِ ، والتّعليمُ والدّلالةُ بالأفعَالِ أُمُورٌ بدِيهيّةٌ تُدرَكُ بالأبصَار ، وأرْبَابُ الأبصَارِ أكثَرُ ، وأثرُ النّفْسِ بمَا ترَى وتُشَاهِدُ أكثَرُ وأعْمَقُ مِن أثرِهَا بما تَسْمَعُ وتَتَخَيَّلُ .

* نَسْتَفِيدُ مِنْ أَيِّ ذِي فِكْرٍ ، أَوْ حِكْمَةٍ ، أو مَوْهِبَةٍ ، ونَسْتَثْمِرُ مَوَاهِبَهُم ، ولَا نَحْتَقِرُ مِن خَلْقِ اللهِ أَحَدًا ، « وَبِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ »(١) .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه [٤/ ١٩٨٦]، باب تحريم ظلم المسلم، رقم:(٢٥٦٤).

خُلُقنا مَعَ أَنفُسِنا

* نُرَبِّي أنفُسَنا، ونُزَكِّيها، ونُطَهِّرُها، ولَا نأمَنُها، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس:٧-١٠].

تَعَرَّفِ النَّفْسَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا ... فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

* لا نُسْرِفْ فِي الأَكْلِ والشُّرْبِ، ولَا نُكْثِرُ المنَامَ.

* نُخَصِّصُ جُزْءًا مِنْ أَوْقَاتِنَا لِلْمُطَالَعَةِ، نُنَمِّي مَعْلُومَاتِنا، ونُوسِّعُ مَفَاهِيمَنا، ونُعَمِّقُ أَفكَارَنَا.

* نَسْتَفِيدُ ونَلْتَقِطُ العِبَرَ والعِظَاتِ والتَّجَارِبَ مِنْ كُلّ مَا يَمُرُّ بنَا في حَيَاتنا.

* يُرَتِّبُ وَيُنَظِّمُ كلٌّ مِنَّا مَصارِفَ دَخْلِهِ لِيَضْمَنَ صَرْفَها في المكَانِ المُناسِبِ، ويَصْرِفُه فِيمَا هوَ أَوْلَى.

* نُبعِدُ النَّظَرَ، نُعِدُّ لِلْمُسْتَقْبَلِ.

* لَا نَغْتَرُّ بمَقْدِرَةٍ أو مَنْصِبٍ أو جَاهٍ أو مَالٍ أو ثَنَاءٍ أو نَصْرٍ.

* ولا نَيْأَسُ ولَا نَتَبَرَّمُ بِفَقْرٍ أو شِدَّةٍ، أو ابْتِلَاءٍ أو هَزِيمَةٍ.

❁ عَلى الله وحَده اعتِمادُنا وإليه اسْتِنَادُنا ، نَتَعَرَّفُ إليهِ في الرَّخاءِ فيَعْرِفُنا في الشِّدَّةِ ، وهو حَسْبُنا ونعمَ الوَكِيلُ .

اللّهُمَّ يا مَن وفَّقَ أهلَ الخير للخيرِ وأعانَهم عليه وفِّقنا للخيرِ وأعنَّا عليه ، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧] .

وصَلّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَى عَظِيمِ الأَخْلَاقِ وحَبيبِ الخَلَّاقِ، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِه وتَابِعِيه أَجْمَعِينَ .

محتويات الكتاب

مطلع قرآني ٥٧
شاهد الحال ٥٨
مقدمة ٥٩
خلقنا مع الله ٦٧
خلقنا مع عباده ٦٩
خلقنا مع أنفسنا ٧٣

تم بحمد الله